الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعـــليم العالي والبحث العلمي

جامعة الإخـــوة منتوري -قسنطينة-

كلية الآداب واللــغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الرقم: ....

الرقم التسلسلي: ....

عنوان البحث:

الحياة الأدبية في قسنطينة

(خلال الفترة العثمانية)

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم

من إنجاز الطالبة:

سعـــودي يمينة

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

الربعي بن سلامة

لجنة المناقشة

1- أ/ الدكتور: .... جامعة: .... - رئيسا

2- أ/ الدكتور: .... الربعي بن سلامة .... جامعة: الإخوة منتوري قسنطينة - مشرفا ومقررا

3- الدكتور: .... جامعة: .... - عضوا مناقشا

4- الدكتور: .... جامعة: .... - عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2006/2005


مُقدّمة

مُقدّمة:

قسنطينة مدينة الهواء والهوى، قسنطينة اسم لمدينة تعد من أعرق المدن الجزائرية، جذورها ضاربة في التاريخ مما جعلها محط أنظار الطامعين من الغزاة والمستكشفين الذين طالما حاولوا حل ألغازها وفك رموزها العديدة والمتنوعة، هذه المدينة الأثرية لازالت تخفي بين طيات صخورها خفايا وأسرارا كونية لم يعرفها الناس والدارسون حتى يومنا هذا، مدينة قسنطينة كانت ولا تزال مصدر إلهام للكثيرين الذين تغنوا بها فاهتم بها الأدباء والشعراء عبر العصور، فهي تلك العروس الرابضة على حافتي وادي الرمال هذه الشامخة شموخ جسورها وصخورها، حيث مرت فوق ترابها أمم وشعوب مختلفة ذهبوا جميعا ولم تذهب بل ظلت صامدة تسجل للتاريخ ما تعاقب عليها.

مدينة قسنطينة احتضنتني في خريف 1996م لمتابعة دراستي الجامعية فتعرفت عليها عن كثب، التحفت سماءها وافترشت أرضها وسرت فوق جسورها التي تمد أذرعتها للقاصي والداني وترحب بالغريب وتجعل له مكانا بين أهلها.

لذا قررت أن أرد لها الجميل ولو بكلمة طيبة أقولها في حقها، ففي عام تخرجي من الجامعة اخترت لمذكرة شهادة الليسانس موضوعا يتحدث عن أحد أبناء هذه المدينة وجندت قلمي لنفض غبار النسيان عنه عرفا بالجميل، ولأن مدينة قسنطينة ملكت شغاف قلبي تراني اليوم أعيد معها الكرة مرة أخرى وأختار لمذكرة الماجستير موضوعا يخص تاريخ هذه المدينة.

فبعد أن اطلعت إطلاعا بسيطا على تاريخ هذه المدينة وما تعاقب عليها من ملوك وشعراء، فممكات قامت وأخرى تلاشت واندثرت، وقع اختياري على فترة الحكم العثماني لأسلط الضوء على الحياة الأدبية خلال هذه الحقبة الزمنية.

هذه الفترة التي تعددت واختلفت روايات المؤرخين في تحديد السنة التي تم فيها دخول الأتراك إلى قسنطينة ولهذا نجد أنفسنا أمام أكثر من تاريخ يحدد بداية العهد العثماني في قسنطينة فنجد مثلا الأنبيري يحدد ذلك سنة 927 هـ/ 1525م أي في عهد خير الدين

باشا، أما مؤرخ قسنطينة ابن العطار فإنه يذكر في كتابه الشهير (تاريخ قسنطينة) أن دخول الأتراك إلى قسنطينة كان سنة 923 هـ / 1517م. بقوله.

وحسب قول "فايست" *Fayssette* و"مارسي" *Marcier* قد هاجمها حسن قائد خير الدين سنة 526م / 933 هـ، واستردها الأتراك سنة 940 هـ/ 1534م ودعموا حكمهم فيها.

إلاّ أن ما يمكن الأخذ به هو ما سجله العنتري مؤرخ قسنطينة والذي يحدد تاريخ دخول قسنطينة تحت طاعة العثمانيين في عام 1664م زمن فاتح عهد البايات "فرحات باي"، كما يقدم لنا العنتري معلومات عن كيفية اقتحام الأتراك لهذه القلعة الشديدة الحراس والمناعة.

أما عن أسبابي لاختيار هذا الموضوع فهنالك سببان رئيسيان يختص كل واحد منهما بشق من الإشكالية:

فأما لماذا اخترت قسنطينة بالذات؟ فزيادة عما سردته عن قصتي معها فأنا مولعة بالبحث في الأدب المحلي فدائما أرى أنه لابد لنا أن نلتفت بعين فاحصة لما خلّفه أجدادنا من تراث أدبي عريق كان الأجدر بنا أن نهتم به قليلا وألاّ نتركه حبيس أدراج التهميش والنسيان، فدائما مقابل معاصرة هناك أصالة.

أما لماذا العهد العثماني؟

فلأنه العهد الذي سبق عهد الاحتلال الفرنسي الذي منذ أن بدأت رسم الحروف على الورق والنطق بها لا يتكرر على مسامعي في دروس الأدب والتاريخ إلاّ عبارة أن هذا الاحتلال الأجنبي عمل جاهدا من أجل طمس معالم الحضارة الإسلامية ومحو هويتها والقضاء على شخصياتها العربية ودفن تراثها الأدبي والديني وتشويه ثقافتها العريقة وجر شعبها إلى غياهب الجهل والأمية.

هذا الشيء لا مجال للشك فيه لأن تلك المساعي هي النوايا الحقيقية التي سعت إليها السلطات الاستعمارية الفرنسية ولم تدخر جهدا لتحقيقها لذلك دفعني حب التطلع إلى محاولة التعرف على هذه الحياة الأدبية التي كانت تعيشها مدينة قسنطينة باعتبارها جزءا لا

يتجزأ من الأراضي الجزائرية ولأنها كانت من المدن التي عانى الاستعمار الفرنسي كثيرا من اجل إسقاطها وإخضاعها لسلطته وكل ذلك بفضل شجاعة قائدها أحمد باي أخر باياتها وبسالة سكانها.

وقد رأيت أن موضـــوع البحث يمكن أن يقسم إلى مدخل وأربعة فصول.

أما المدخل: فقد تناولت فيه الموقع الجغرافي للمدينة، وطبيعتها التي جعلتها لغزا يحير الكثيرين بالإضافة إلى أصل تسمية المدينة وكيف تطور الاسم حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن، ثم الإشارة إلى أهم المحطات التاريخية في عمر المدينة التي سبقت العهد العثماني ثم الوصول إليه.

أما الفصل الأول: فقد تحدثت فيه أولا عن الأوضاع السياسية التي عرفتها مدينة قسنطينة، ومتى دخلها الأتراك ؟ وكيف استقر حكمهم فيها ؟ ومن هم أهم البايات الذين حكموها ؟ وما هي أبرز وأهم الأحداث السياسية التي رسمت تاريخ المدينة في ذلك العهد.

ثم انتقلت للحديث عن الأوضاع الاقتصادية التي كانت مدينة قسنطينة تعيشها وكل التعاملات التي كان يسير عليها اقتصاد المدينة من السلطة العليا إلى عامة الشعب.

وبعد ذلك أزحت الستار عن الحالة الاجتماعية التي كانت مرتبطة أساسا بالأوضاع الاقتصادية وفيه كانت لدينا إطلالة على الواقع المعيشي لسكان قسنطينة لنجد أن المجتمع القسنطينـــي في العصر العثماني كان مجتمعا طبقيا يتكون من:(الطبقة الحاكمة وحاشيتها ، وتعيش في بذخ كبير وغنى فاحش، ثم طبقة التجار وهي طبقة الوسط ثم تليها طبقة الحرفيين مثل الإسكافيين والخياطين...)، وتبقى طبقة عامة الناس المعدومين التي تمثل غالبية الشعب، وأكثر بكثير من نصف المجتمع.

أما الفصل الثاني: فأردت به إبراز أهم الأسماء الأدبية القسنطينـــية التي عاشت فترة الحكم العثماني كما حاولت تسليط الضوء على بعض النماذج من إنتاجهم الأدبي.

أما عن الفصل الثالث : فكان للحديث عن أبرز الشعراء الذين أنجبتهم قسنطينة خلال هذه الفترة مع ذكر بعض من إنتاجهم الشعري كلما توفر لدي ذلك ، وما يمكن الإشارة إليه هنا

هو أننا نلتقي مع بعض الأسماء في الفصل الثاني والثالث معا حيث أن هناك من الأسماء ما هو كاتب وشاعر في الوقت نفسه.

أما الفصل الرابع والأخير: فكان عبارة عن وقفة فنية عند بعض النصوص النثرية والشعرية وذلك لإبراز أهم خصائصها الفنية، ومميزاتها الأدبية، وذلك من خلال الوزن والقافية والصورة الشعرية واللغة والعبارة.

وإذا كنت لا أستطيع أن أزعم بأنني قد أتيت في هذا البحث بكل جديد أو بأنني قد أتيت بما لم يأت به الأوائل فذلك لأني اعتمدت على من سبقني وأخصُ بالذكر هنا الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي استفدت كثيرا من كتابه"تاريخ الجزائر الثقافي" بجزأيه الأول والثاني أيضا كتابه "محمد الشاذلي القسنطيني - دراسة ونصوص..."، كذلك كتاب "أم الحواضر في الماضي والحاضر" لصاحبه محمد المهدي بن شعيب بالإضافة إلى كتاب الأستاذ سليمان الصيد الذي يحمل عنوان "نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار" وغيرهم.

ولكنني لم أكتف بما وجدته في هذه الكتب موزعا ومشتتا وإنما حاولت أن أجري عليه دراسة تركيبية تبرزه في صورة أقرب إلى الكمال.

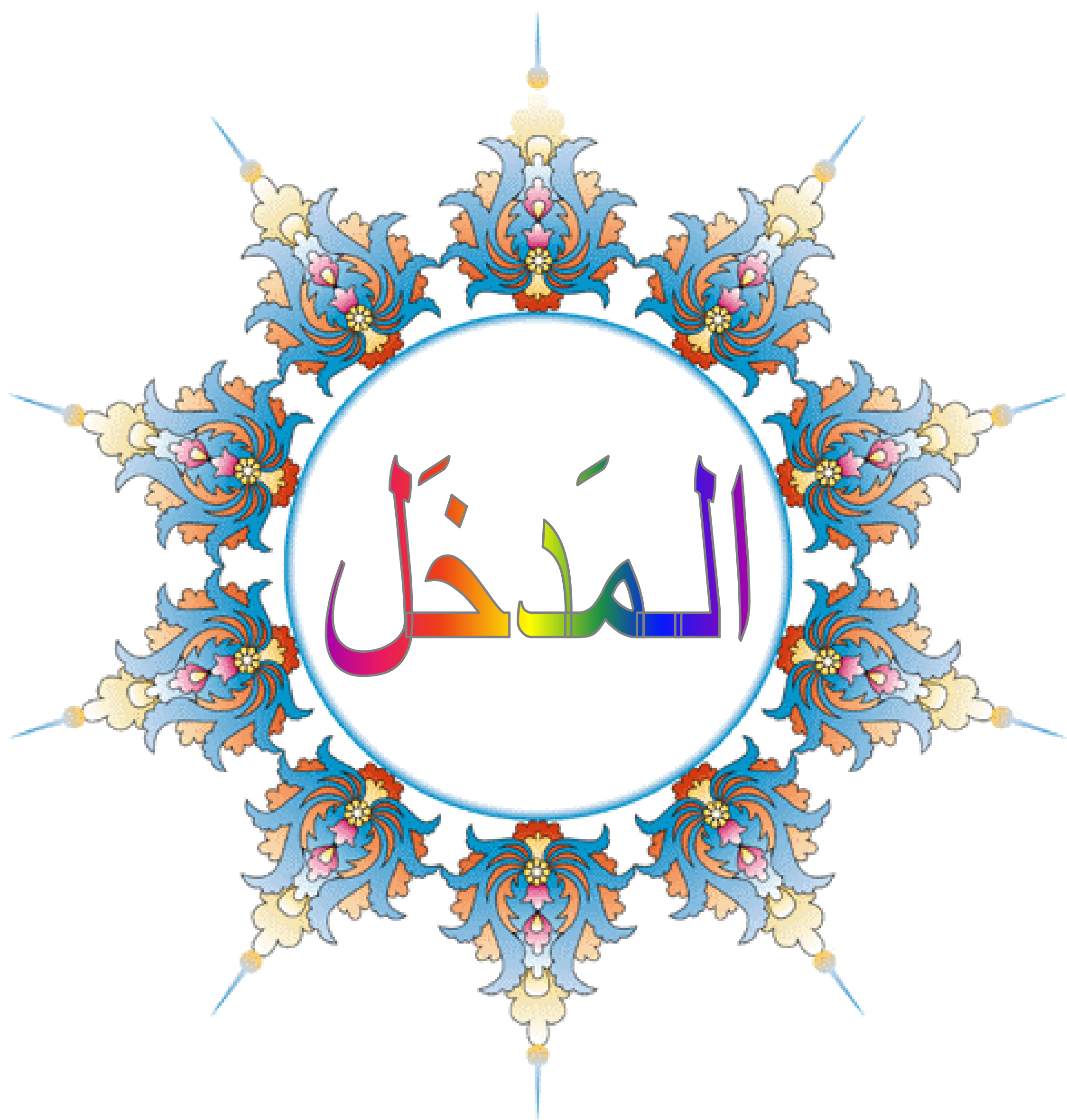
ولا يفوتني وأنا أقدم هذه المذكرة أن أشير إلى أنني واجهت العديد من الصعوبات التي تمثل أهمها في صعوبة الحصول على المصادر والمراجع الضرورية لإنجاز عملي في الوقت المحدد بالإضافة إلى أنني ربة بيت ومسؤولة عن أسرة، فقد أعاقني هذا قليلا خاصة فيما يخص التنقلات من أجل البحث عن المراجع والمصادر.

وكذلك أرى من واجبي أن أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد على تجاوز هذه الصعوبات وأعانني بأحد المراجع أو شجعني، ولو بكلمة طيبة، وأخص بالذكر هنا زوجي العزيز الذي لم يبخل علي بمساعداته المادية ولا بتشجيعاته وكان لي خير عون في هذا المشوار.

أما الشكر الكبير والجميل الأكبر فإنني أعتّرف به لأستاذي المشرف الدكتور "الربعي بن سلامة" الذي أفادني بالكثير من توجيهاته ونصائحه العلمية والمنهجية التي

كان لها أجمل الأثر في إخراج هذا البحث على هذه الصورة التي لا أشك في أنها لا تزال بحاجة إلى جهد باحثين آخرين لتصبح أقرب إلى الكمال.

وبالله التوفيق


المَدخَل

موقع مدينة قسنطينة وطبيعتها

أصل تسميتها

أهم المحطات في تاريخ قسنطينة

موقع مدينة قسنطينة وطبيعتها:

تقع مدينة قسنطينة فلكيا على خط عرض *23-36*° شمالا، وخط طول *35-7*° شرقا، وهي بذلك تحتل موقعا متميزا بالنسبة لشرق الدولة الجزائرية.

حدود إقليم قسنطينة خلال العهد العثماني:

يعد إقليم قسنطينة من أكثر أقاليم الإيالة الجزائرية ثروة وخصبا ومن أوسعها مساحة، ويحد هذا الإقليم شمالا البحر، وغربا واد الصمار، الذي يعرف بوادي بني منصور، وبني عباس، ومن الجنوب يحد إقليم قسنطينة الصحراء ويلحق به مدينة ورقلة، أما من الجهة الشرقية فيحده إقليم تونس.

إن المتصفح للكتب التي تحدثت عن هذه المدينة قد يدرك مدى الاختلاف الواضح في قضية نشأتها وظهورها، فالمؤرخ القسنطيني **أحمد اللنبيري** اليوناني الأصل التونسي النشأة، الترجمان بالمحكمة المدنية في قسنطينة منذ سنة *1846*م (*1263*هـ) في تاريخه لمدينة قسنطينة الذي سماه (علاج السفينة في بحر قسنطينة) قال ما يلي: **إن بني كنعان النازحين من فلسطين حوالي سنة *1300* ق.م قد امتزجوا بالنوميديين وأسسوا مدينة قسنطينة حوالي سنة *1450* ق.م**[1].

وقال أيضا في موضع آخر من كتابه المذكور أن الفرنسيين عندما قاموا بعمليات حفر في مقبرتهم التي كانت بباب الوادي بمدينة قسنطينة، وجدوا شواهد قبور نوميدية[2] ذوات شكل مثلث ومذنب من الأعلى، وبها كتابات كنعانية وهذا دليل على الامتزاج النوميدي الكنعاني.

---

(1) - ابن شغيب، محمد المهدي بن علي. أم الحواضر في الماضي والحاضر. ط 1. مطبعة البعث. قسنطينة. 1980. ص 80.

(2) - نسبة إلى إقليم نوميديا، وهو جزء من إفريقيا بين قرطاج وموريتانيا ،أي أنه يشمل القطر التونسي كله وشرق الجزائر إلى حدود بجاية.

كما ذكر مؤرخ قسنطينة **(أرنيست ميرسي)** *ERNEST MERCIER* : والترجمان بالمحكمة المدنية وشيخ مدينة قسنطينة في تاريخه لهذه الحاضرة أنه يرجع تاريخ نشأتها إلى العهد الذي غادر فيه الإنسان سكنى الكهوف والمغارات وصار يألف حياة الاجتماع والانتظام"[1].

وهكذا وبمرور الأزمنة تبقى مدينة قسنطينة المدينة اللغز بالنسبة لهويتها وتاريخ تأسيسها ونشأتها ويبقى هذا الغموض يثير فضول الكثير من الذين حاولوا فك هذا اللغز، لكن دون جدوى وذلك بسبب احتواء المدينة على أثار قديمة يرجع تاريخها إلى مختلف العصور والمدنيات التي نشأت بقسنطينة، فهذه المدينة الأثرية لا زالت تخفي في طياتها خفايا وأسراراً كونية لم يعرفها الناس والدارسون حتى اليوم.

(1) - بن شعيب، محمد المهدي. أم الحواضر في الماضي والحاضر. ط أ قسنطينة: مطبعة البعث، 1980م. ص 9.

أصل التسمية:

لقد كان لمدينة قسنطينة -عاصمة الشرق الجزائري- والتي تعتبر منبع الحركات الفكرية في البلاد عدة تسميات عبر تاريخها الطويل، من المؤسف أن بعض نواحي هذا التاريخ مازال يكتنفه الغموض، أي وجود بعض الحلقات الضائعة من سلسلة تاريخ المدينة، ونجد ذلك خاصة ما بين العصر الحجري الثاني الموريتاني (9500 - 7500) ق م، وبداية عصر ملوك نوميديا إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

ولهذا السبب نجد أن الكتب التي اتخذت من المدينة موضوعا لمختلف الأبحاث والدراسات قد شحت علينا بأخبار المدينة، إلاّ أنّ تاريخها القديم بدليل أطلالها التي مازالت صامدة رغم عوامل التعرية، يؤكد لنا أن هذه المدينة عريقة الأصالة ضاربة في القِدم.

فقسنطينة وهو الاسم الحالي للمدينة من المستحيل أن يكون هو الاسم الذي عرفت به منذ نشأتها وأنه لم يطرأ عليه أي تغيير، خاصة وأن بعض المراجع ردت زمن النشأة إلى عصر الكهوف التي سكنها الإنسان.

لذلك فقد ورد للمدينة عدة تسميات في بعض المصادر والمراجع وكذلك على ألسنة كبار الشيوخ، ومن هذه التسميات: سيرتا، قرطة، بلد الهواء، بلدة الهوى، مستعمرة سيتيوس، الحصن الإفريقي وقسنطينة إلى غير ذلك من الأسماء.

وسنحاول الوقوف بشيء من التفصيل عند كل اسم من هذه الأسماء:

من بين أقدم الأسماء التي عرفت بها المدينة اسم (سيرتا *Cirta*) الذي يقال أنه سامي الأصل وأنه تحريف للاسم الحقيقي الذي هو (كرتن *Crtn*)، ومعنى هذا الاسم المدينة أو القلعة.

وقد ظهر إلى الوجود على قاعدة نوميديا الوسطى منذ بداية القرن الثالث قبل الميلاد، وذلك بعد انقسام موريتانيا الشرقية إلى قسمين :

- الشرقية وعاصمتها سطيف (موريطانيا السطيفية).
- الوسطى وعاصمتها سيرتا[1].

---

(1) - محمد المهدي بن شعيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص 10.

وقد وجدت عملة برونزية عثر عليها بضواحي المدينة ظهر على وجهها صورة لرأس امرأة يعلوه تاج ويأخذ شكل بريجات -تصغير لبرج- مسننة في أعلاها تتخللها أبواب، ويعتقد بأنها تشير إلى أبواب سيرتا القديمة، وقد كان ذلك أثناء حكم النوميديين. وأمام الرأس المتوج داخل العملة البرونزية، وجدت كتابة بونية جديدة (*Néo – punique*) تتكون من أربعة أحرف هي (**ك – ر – ت – ن**) ومجموع هذه الحروف يشير إلى اسم (كرتن) أو كرته القديمة ولضرورة يقتضيها النطق قرأها الرومان وفقا للغتهم اللاتينية فيما بعد سيرتا ***Cirta***.

ولذلك فإنه منذ الفترة الرومانية عرفت المدينة بـــ **"سيرتا"** خلافا للاسم القديم الذي هو **"كرتن"**، أما خلف الرأس المتوج داخل العملة البرونزية فتظهر كتابة أخرى قرئت من طرف المختصين (بود ملقارت ودانو)، وربما يشير هذان الاسمان إلى القاضيين اللذين كانا يشرفان على الجانب الديني حينذاك في المدينة أو كانا يحكمان فيها(1).

ومهما يكن من الأمر فإن صور القلاع التي تعلو تاج المرأة التي ترمز إلى آلهة المدينة تعطينا فكرة من خلال إمعان النظر إلى طريقة بناء القلاع وأن سيرتا كانت منذ بدايتها محصنة للغاية، وهذا ما جعل كل من حاول غزوها يرجع أدراجه وهو يجر وراءه أذيال الخيبة والهزيمة. ومن جهة أخرى يلاحظ أن العملة البرونزية التي تحمل كتابة "كرته" كانت قد ضربت في فترة الملك **"يوبا الأول"** أو بزمن قليل قبله حيث تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، ذلك أن حروف الكتابة التي نقش بها رسم المدينة هي نوع الكتابة البونية الجديدة كما سبق ذكر ذلك، وأن هذه الكتابة لم يسبق أن تداولوها في شمال إفريقيا إلا في القرن الأول قبل الميلاد.

وأخيرا يمكن الإشارة إلى أن اسم سيرتا يعود بدوره إلى بداية الاحتلال الروماني لنوميديا الذي يؤرخ له بسنة *46* ق.م، حين أصبحت سيرتا عاصمة للاتحاد السيرتي، الذي أنشأه المغامر (**سيتيوس** *P.Sitios*)(2). ومنه جاء اسم (**مستعمرة سيتيوس**).

---

(1)- BERTHIER – A La Numidie (Rome et Maghreb) PARIS 1980 , p 74

(2) - غانم محمد الصغير: قسنطينة عبر تاريخها القديم ، مجلة العلوم الإنسانية ،جامعة منتوري سنة 1999 ص 140.

لقد عرفت المدينة باسم آخر وهو **(بلد الهواء)** أو **(بلدة الهوى)**، حيث جاء في البحث الذي قدمه الأستاذ **(جوليود *Joleaud*)** من كلية العلوم بباريس ملخصه **:**"اشتهر موقع وادي قسنطينة، في سائر البلاد الجزائرية بروعة منظر مجراه الطبيعي في أعماق الشقوق الصخرية، كما اشتهر بدوره التاريخي الذي لا نعرف له بداية، وقسنطينة ذات الوضعية الفطرية البديهية كانت مثار إلهام للشعراء والكتاب وصدور الكثير من الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة عنها في وصفها، وما فتئ العرب يسمونها **(بلدة الهواء)** أو **(بلدة الهوى).**

وقد فسر **سيدي عمر الوزان** معنى الكلمتين في رسالة صافية، بعثها إلى حسن آغا والي الجزائر وخليفة **خير الدين أشقر اللحية** إذ قال**:** "فالبلدة هذه المسماة ببلدة الهوى حسي ومعنوي"**.**

فهواءها الحسي لا يزيد ولا ينقص في مرآة البصر، وهواها المعنوي يزيد وينمو حسب الليالي والأيام كما هو مشاهد لكل ذي بصيرة(1)**.**

وسميت كذلك بالحصن الإفريقي فقد كانت أسوارها منيعة وقلاعها محصنة للغاية، وبما أن الجزائر كانت بوابة العالم على إفريقيا وكانت قسنطينة جزءا لا يتجزأ من الجزائر فهي إذن من هذه البوابة فوجب عليها أن تكون حصينة ومنيعة**.**

أما عن التسمية الحالية التي تعرف بها المدينة، ألا وهي قسنطينة، فإننا نشير إلى أنها لا تزيد عمقا في التاريخ عن بداية القرن الرابع ميلادي، وهي نسبة إلى **(قسطنطين الكبير)** الذي أعاد بناءها ورمم أسوارها وأعطاها هذا الاسم سنة *313*م، وذلك بعد أن هدمها الصراع بين إمبراطور روما **(ماكسانس)** و**(دومتيوس الكسندر)** والذي اتخذ سيرتا عاصمة له غير مبال بالسلطة في روما(2)**.**

ويعود اسم قسنطينة المنسوب إلى **(قسطنطين)** إلى أنه كانت لقسطنطين هذا أختا تدعى بهذا الاسم وقد سمى المدينة باسمها حسب بعض المصادر**.**

---

(1) - محمد المهدي بن شعيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص 10.

(2) - غانم، محمد الصغير: المقال السابق. مجلة العلوم الإنسانية ص 140.

وقد ظهرت بعض الاختلافات فيما يخص هذا الاسم فقد قلنا إن المدينة سميت بهذا الاسم نسبة إلى مجـــددها قسطنطين، والأرجح هو أن اســـم المدينة مركب من كلمتين هما: قصر – طينة، فامتزجت الكلمتان، وصارت بحكم النطق المتغير والتطور الزمني وما أصاب الكلمة من تحريف فتحول الاسم من قصر طينة إلى اسم قسنطينة وذلك بإبدال الصاد سينا والراء نونا.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد المغاربة (في المغرب الأقصى) يسموها كما جاء في كتبهم التاريخية - قسم طينة (قسنطينة)، كما ظهر لها اسم آخر بتبديل حروف أخرى وهو حصن- طينة. وهذا ما نجده عند العلامة **أحمد ابن الخطيب** المعروف **بابن قنفذ القسنطينـــي** المتوفى سنة *810*هـــ، وكان بارزا في أرجوزته الفلكية المسماة بالسراج، حيث جاء في آخر جزء ما يلي[1]:

وها هنا فرغـــت من الرجـــز	لأنـــه فيـــما أردت قـــد نجـــز
بالقصد في العلم الذي يصوغ	شرعـــا وقـــد أتى هنـــا بلـــيغ
مع اختـــصار وبيـــان كاف	عن طـــرق شتى لذي الإنصاف
فإن أكـــن مقصـــرا في العلم	أو لســـت ذا براعـــة في نظمي
فالعـــذر لي عن ابتـــــداء فن	لا يقـــتضي التـــأليف فيه سني
أول ما ابتـــدأت فيه شعري	مخـــتبرا نظـــمي و حسن فكري
فجـــاء عذبا لأولي الألبـــاب	والحمـــد لله علـــى الصـــواب
ثم صـــلاة الله ذي الجـــلال	علـــى النـــبي المصـــطفى والآل
وصحـــبة تترى على الترتيب	من أحمـــد بن أحســـن الخطيب
يعرف بابن قنـــفذ اشتـــهاره	من- حصن طينة – فتـــلك داره
أتى بهـــا الـــرجز المهـــذب	بفاس الكـــبرى من أرض المغرب
وذاك في شهر جمـــادى الأولى	من عام -خط- بعـــد ذا معقولا

(1) - الصيد، سليمان: نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار. المطبعة الجزائرية. الطبعة الأولى 1414هـــ - 1994م. ص 10.

وفي سنة "1150هـ" يظهر للمدينة اسم آخر، ونجد هذا الاسم في استغاثة يستنجد ناظمها فيها الأولياء الصالحين والعلماء، مبتدئا بأولياء الله في المغرب الأقصى ثم منتقلا إلى أولياء الله بالمغرب العربي إلى أن يصل إلى الجزائر وحين يصل إلى شرقها يقول[1]:

وين أهـــل بجاية وجبار	كـــل جهة يمـــين ويسار
وين من لهـــم عقلي طار	فالهـــوى ودليـــلي فتنوه
وين أهل- قصر طينة -	بن سليـــمان وبدر الدين
والعروسي وأهل الوطنين	والجـــريدي وناسا طعنوه
وين أهل الزيبان خفاف	وأهل كل قبيلة وأشراف

كما ظهرت التسمية نفسها في عصر الشيخ **عبد الكريم بن محمد الفكون**، ويتضح لنا من خلال رسالة أرسلها العلامة **سعيد بن إبراهيم** الشهير بقدورة إلى **ابن الفكون** يقول فيها: "أحمد الله الذي جعل الرسائل وسائل لتعارف الأرواح، وقلدها من أسراره خمائل وجبائل تجتذب بها القلوب والأشباح وتقرب مسايف المتحابين وإن شطت مزارهم واتراج... ثم إني أنهي سلامي التام الشامل مصحوبا بالتحيات والإعظام محفوفا بالتبجيل والإجلال والإكرام إلى مقام العلوم التي بحرها زاخر... وزينوه بالحسب النظار وجملة ورفعه إذ كان عمدة وخفض الجم من شرفت به – قصر طينة – فصار تربها من أطيب تربة وأفخر طينة وأصبحت ترفل على كل قرية ومدينة... "[2].

وتبقى التسمية نفسها في عصر الشيخ **بركات بن عبد الرحمن بن باديس**، فقد جاء في آخر كتاب فقهي مخطوط، الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم : يقول العبد الفقير لرحمة ربه **بركات بن عبد الرحمن بن باديس** قد كنت وقفت على طرة منسوبة

---

(1) - الصيد، سليمان: نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار. المطبعة الجزائرية. الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م. ص 12.

(2) – المرجع نفسه. ص 13.

لابن غازي في إباحة ما صيد بالبندقية إذا كانت من رصاص بخلاف إذا كانت من طين فبحثت عن أصل الطرة في تكميل التقيد **لابن غازي** وحاشيته على المختصر، فلم نجد لها ذكرا فيهما إلى أن اجتمعت مع الشيخ العالم العلامة حافظ العصر **أبي زكرياء يحي الشاوي** حين قدم لبلادنا -قصر طينة-[1].

وهكذا نجد أن الاسم الأكثر شيوعا هو اسم – قصر طينة – الذي أصابه التحريف وإبدال الحروف بمرور الزمن وتعاقب الأجيال إلى قسنطينة، وكما يذكر الكاتب **سليمان الصيد** أن اسم قسنطينة نسبة إلى **قسطنطين** إنما هي ذريعة أوجدها إدارة الاحتلال والمؤرخون الفرنسيون لأن **قسطنطين** عندهم هو مجددها فكأنما هذا الشخص هو الذي أحدث مدينة قسنطينة في التاريخ من العدم.

ونظرا لكل هذه الاختلافات التي وجدناها حول الاسم الأول والأصلي للمدينة، يرى الدكتور **محمد الصغير غانم** من قسم التاريخ، بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة قسنطينة في مقال له حول المدينة أنه من الأفضل تسمية المدينة باسم **"نوميديا "**، ويرى في هذا الاسم أنه أقدم التسميات أو أقدم فترة مرت على المدينة في تاريخها.

كما يرى إن أردنا أن نكون منسجمين مع تاريخنا المعاصر قولا وعملا يجب أن نطلق عليها اسم **"الباديسية"**، وذلك نسبة إلى رائد النهضة الجزائرية الإصلاحية ألا وهو الشيخ العلامة الكبير **"عبد الحميد بن باديس"**[2].

---

(1) – الصيد، سليمان: نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار. المطبعة الجزائرية. الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م. ص15.

(2) - غانم محمد الصغير: المقال السابق – مجلة العلوم الإنسانية ص 140.

أهم المحطات في تاريخ قسنطينة:

تعتبر مدينة قسنطينة من المدن الجزائرية الهامة بتاريخها وتراثها العريق، فقد عاشت طويلا وعمرت كثيرا، وطبقاتها تحتضن آثاراً دالة على مختلف الحضارات المتوافدة عليها، ويتضح ذلك من خلال الحفريات التي أجراها الفرنسيون عام *1857*م في مقبرتهم بباب الوادي، حيث وجدوا شواهد قبور نوميدية كما سبق الذكر.

لقد ذكر **العطار** في كتابه الشهير تاريخ قسنطينة ما يلي **:**"إن قسنطينة سميت في القرون الوسطى **سيرته** وكانت عاصمة سلاطين نوميدية فكان **لصفاقص** منهم قصر عظيم و**لمسينيسا** والملوك الذين جاؤوا بعده قصورا وعنوا بها فزينوها ونظموها وجلبوا إليها التجار اليونانيين والرومان "(1)**.**

وبذلك فقد حظيت "**سيرته**" بمكانه اقتصادية هامة في العهد النوميدي وكانت مدينة ذات ثراء ونعمة حيث ذكر المؤرخ والجغرافي الإغريقي الشرابون "أنها كانت في عهد الملك **مكيوسن** قادرة على تقديم عشرة آلاف فارس وضعف عددهم من المشاة وأنها كانت ذات رخاء لا يضاهى"(2)**.**

ولأن "**سيرته**" كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام ومحصن جيدا فقد شجع ذلك التجار الأجانب وأصحاب الحرف من مختلف الجنسيات على الإقامة بها دون خوف، فتعايشت هذه العناصر الأجنبية منذ زمن بعيد بالمدينة، وهذا ما دلت عليه الاكتشافات الأثرية التي وجدت وما زالت تكتشف من حين لآخر، تحت أطلال هذه المدينة.

قسنطينة في العهد الروماني:

---

(1) - العطار أحمد بن مبارك: تاريخ قسنطينة. تحقيق. رابح بونار. ص 17.

(2) - لعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة دراسة في جغرافية العمران. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر سنة 1984م. ص 68.

لقد شهدت مدينة قسنطينة صورا من الصراع بين قرطاج وروما، وذلك ما يعرف بالحرب البونية هذا الصراع الذي دام مدة قرنين من الزمن، وتأثرت به تأثرا كبيرا كغيرها من المدن النوميدية التي خاضت الحرب سواء كانت إلى جانب قرطاج أو إلى جانب روما.

" إن الرومان ومنذ فترة طويلة كانوا ينظرون إلى مدينة قسنطينة كما ينظرون إلى قرطاج بعين التوجس والطمع والرغبة في الاستئثار بها، لموقعها الاستراتيجي والجغرافي وحصانتها، والمكانة التي تتبوؤها وتتمتع بها في الميدان الاقتصادي فقاموا باحتلالها سنة 112م "(1). ومنذ هذا التاريخ أصبحت قسنطينة مستعمرة رومانية تحولت فيما بعد إلى عاصمة لكنفدرالية المستعمرات الأربع والتي تجمع تحت لوائها كلاً من قسنطينة وميلة والقل وسكيكدة، وقد كان لكل مستعمر نظام خاص به في تسير شؤون المستعمرات، بينما كانت قسنطينة تتولى الدفاع عنها وتعيين قضاتها، إلا أن المدينة لم تنعم بالاستقرار الذي تعودت عليه، ولم يسدها الهدوء خاصة في المرحلة الأولى من حكم الرومان لها، حيث أن أهل المدينة والقبائل النوميدية المجاورة قد رفضوا هذا الاحتلال الأجنبي وقاموا بعدة ثورات، وكان **"يوغرطة"** زعيما للمقاومة، وسعى بكل جهده لتخليص نوميديا من براثين السيطرة الرومانية، ونظرا لاشتداد وطيس الحروب بين جيوش روما ومقاومة أهالي نوميديا، بالإضافة إلى تصارع أهل السلطة فيها بينهم داخل الكنفدرالية، الأمر الذي أدى إلى تدميرها سنة 308م فقد نهبت وأحرقت.

ثم عادت قسنطينة إلى مسرح التاريخ على يد **"قسطنطين"** الذي جددها وأعاد بناءها سنة 313م ولهذا نسبت إليه واشتق اسمها من اسمه. وقد كرس جهده لتعمير وتنشيط تجارتها وصناعتها وزراعتها، فاستقطب إليها جاليات سكانية جديدة، وشجع الاستقرار بها حتى كثر سكانها وانتشر عمرانها وامتد خارج أسوار المدينة.

وفي سنة 337م توفي **"قسطنطين"**، وبقيت مدينة قسنطينة ترزحُ تحت وطأة الاستعمار الروماني، واستمر أهاليها في المقاومة إلى سنة 427م حيث تمكنوا من حمل حاكمها الروماني

---

(1) – Mercier (e) histoire de Constantine. 1903. Page 42.

"**بونيفاص**" على المطالبة بالاستقلال عن روما. ومن أجل هذا الصراع استنجدت المدينة "**بالوندال**" ألدّ أعداء الرومان فلبوا النداء ودخلوا المدينة واستقروا بها مدة من الزمن دامت ما بين سنة 432م-534م.

حوالي سنة 524م استرجع الروم البيزنطيون بلاد افريقية من الوندال ومنها مدينة قسنطينة، وثار في وجوههم زعماء البربر بثورات عديدة ومقاومة شديدة، أخمدوها بعد جهد كبير، واستمر هذا العداء على أشده إلى غاية ظهور الإسلام في افريقية حوالي سنة 645م، فرحب به البرابرة وأهل قسنطينة، فأنقذ سكانها من تعسف وطغيان الرومان.

قسنطينة تحت الحكم الإسلامي:

بعد غروب شمس الرومان في شمال إفريقيا واضمحلال نفوذهم وضعف قوتهم، وصلت موجات الفتح الإسلامي إلى منطقة المغرب العربي فهاجم الفاتحون العرب مدينة قرطاج والمدن الأخرى البيزنطية التابعة لها فوقعت في قبضتهم، وأسست تحت حكمهم جل المدن، ومن بينها مدينة قسنطينة، وكان ذلك في القرن السابع للميلاد، لكن عن كيفية دخول الجيوش الإسلامية مدينة قسنطينة؟ ومن هو فاتح المدينة ؟ نجد أنفسنا أمام افتراضات وآراء عدة متضاربة، ولهذا وضع المؤلف **"محمد المهدي بن شعيب"** احتمالات لابد أن يكون واحد منها هو الأقرب إلى الصواب وهذه الاحتمالات هي:

- إما أن العرب تجاوزوا قسنطينة وضربوا عليها الحصار لمناعتها الطبيعية وظلوا يراقبونها ويضايقونها إلى أن استسلمت لهم.
- أو أنها لم تكن وقت مجيئهم ذات شأن يذكر فلم يكترثوا لها وتجاوزوها إلى أن دانت بعد ذلك بالطاعة.
- أو أنها دخلت في طاعتهم صلحا من أول وهلة بدون قتال كما فعلت من قبل مع الوندال[1].

وإذا كانت قسنطينة دخلت في طاعة العرب صلحا وهذا أقرب إلى القبول، إذ لو كان عكس ذلك ودخلوها بالقوة لذكر المؤرخون ذلك كما ذكروا الوقائع الأخرى، فهل كان هذا الصلح مع عقبة بن نافع ؟ أو مع غيره ؟.

أما عن فاتح هذه المدينة من القادة العرب، فإن الأمر لم يخل من الاختلاف في الآراء وتضارب في المعلومات، ففي مخطوط عربي يحمل عنوان **"فتح افريقية"** من تأليف **محمد برادة** من أهل عين البيضاء ذكر فيه أن هذه البلاد فتحت بيد السيد **"عبد الله"** وعلى فرض صحة قوله، فمن هو عبد الله الذي وقع الفتح على يده. وهل هو أحد العبادلة السبعة الذين حضروا معركة سبيطلة بالبلاد التونسية مع **عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري** في عام *23*هـ - *642*م، وهو أحد كتاب وحي النبي (ρ) وهم:

---

(1) - بن شغيب محمد المهدي: أم الحواضر. ص27.

- قائد الجيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح.
- عبد الله بن الزبير بن العوام، قاتل ملك الروم.
- عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي.
- عبد الله بن عمر بن الخطاب.
- عبد الله بن عمرو بن العاص.
- عبد الله بن جعفر.
- عبد الله بن مسعود[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد المؤرخ **"الواقدي"** ينفرد برواية تتحدث عن فتح مدينة قسنطينة في كتابه المأثور **"فتوح افريقية"** حيث يرى أن فاتح هذه المدينة هو القائد**"عقبة بن عامر"** وليس **"عقبة بن نافع"**[2]، كما تشير بعض المراجع التاريخية أن القائد المسلم **"أبو المهاجر دينار"** هو من كان له الفضل والسبق في فتح مدينة قسنطينة، وهذا ما نجده صريحا وجليا في كتاب عبد العزيز فلالي ومحمد الهادي لعروق **"مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية"**.

ومما يؤثر عن هذا القائد **"أبو المهاجر دينار"** أنه كان يتمتع بسياسة حكمية، وحنكة دبلوماسية في معاملة المغاربة فاستطاع التقرب من الأهالي، فظلت قسنطينة محافظة على إسلامها منذ عهد **أبي المهاجر دينار** الذي لم يتوان في إرسال بعثات الفقهاء والمعلمين لها، الذين ساهموا بشكل فعال في تثقيف سكان المدينة وتعليمهم مبادئ دينهم ولغتهم العربية. كما تجدر الإشارة هنا إلى الدور الذي قام به **"حسان بن النعمان"** في تدوين الدواوين وتعريبها حيث يرجع الفضل والأسبقية في ذلك له.

---

(1) - بن شغيب محمد المهدي: أم الحواضر ص 29.

(2) - فيلالي عبد العزيز ولعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة. دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية. دار البعث. قسنطينة. الطبعة الأولى. 1984م. ص 40.

بقيت قسنطينة هي العاصمة لإقليم قائم بذاته، وتابع إداريا وسياسيا للقيروان، في عهد الولاة الذي دام نحو قرن من الزمن، أي من عهد **موسى بن نصير** إلى قيام الدولة الأغلبية سنة *184*هـ/*800*م.

وقد كانت في هذه الفترة تتمتع بازدهار اقتصادي كبير، إلى جانب نهضة علمية وثقافية ومعمارية إذ اهتم أمراء بني الأغلب بالنشاط الثقافي وشجعوه، وقربوا العلماء والأدباء والشعراء، وأجزلوا لهم العطاء، ودام حكم الأغالبة إلى سنة *296* هـ / *912* م.

ثم قامت بعد ذلك الدولة الفاطمية من سنة *296* هـ إلى سنة *362* هـ ثم دخلت تحت حكم **بني زيري** سنة *362* هـ ودامت إلى سنة *542* هـ، وهاجمها الهلاليون حوالي *462* هـ وتحكموا فيها، ثم خرجت عنهم ودخلت حكم الحماديين (*404* هـ - *547* هـ) في عهد **الناصر الحمادي** (*404* هـ- *481* هـ)، ووقعت بها ثورة **"بلياز"** عم الأمير الناصري، ودامت تحت حكم الحماديين إلى آخر عهدهم، ولما سقطت بجاية في يد الموحدين دخلت قسنطينة تحت حكمهم في سنة *547* هـ / *1153-1154* م.

وهاجمها **"علي بن غانية"** سنة *580* هـ / *1185* م فرد على أعقابه، ولم يستطع اقتحام أسوارها لحصانتها وشدة مقاومة حاميتها، ودامت قسنطينة تحت حكم الموحدين حتى أستقل بها أبو زكرياء (الحفصي *662* هـ *1228* م/ *1229* م) ودخلت حينذاك تحت الحكم الحفصي[1].

وكانت مدينة قسنطينة على عهد الحفصيين تتمتع بمكانة ممتازة وكثيرا ما كانت تخرج عن حكمهم تحت وال يستقل بها أو يكون تابعا لأمير كما كان ذلك على عهد **أبي البقاء** سلطان بجاية سنة *1309*م / *708*هـ.

ووقعت بها عدة ثورات ما بين سنتي *1309* م / *708* هـ و*1312* م / *729* هـ.

كانت قسنطينة مدينة تحت حكم الوزير **"ابن الغمر"** وجلب إليه **أبا يحي** ونصره وأعانه على السلطة بتونس. وفي سنة *1325* م وقع انقلاب آخر بسعي **"ابن قالون"** وهاجمها بنو عبد الواد عدة مرات بدون جدوى، وفي سنة *1347* م / *747* هـ أي

---

(1) - بن العطار: تاريخ قسنطينة. ص19.

منتصف القرنه الرابع عشر، احتل **"أبو الحسن المريني"** قسنطينة وطرد منها الحفصيين، ولما انهزم بالقيروان استلقت عنه تحت حكم **الفضل الحفصي.**
وأرادت قبيلة الذواودة احتلال المدينة فدافع عنها أميرها سنة *1355* م / *755* هـــ وعاد **"أبو عنان"** إليها واحتلها من جديد حوالي نفس السنة. ثم رجعت إلى حكم **"أبي العباس الحفصي"** سلطان تونس سنة *1370* م / *771* هـــ ونعمت بالهدوء في عهده، وجاء بعده **"أبو فارس الحفصي"** فدخلت تحت حكمه وخرجت عنه ثم عادت إليه.

نهضت قسنطينة نهضة علمية وثقافية في عهد بني حفص لم تشهد لها من قبل مثيلا، فقد انتشر بها التعليم بواسطة الكتاتيب والمدارس والجوامع والزوايا. كما التف بنو قسنطينة كغيرهم من أبناء حواضر المغرب، حول جامع الزيتونة وبيت الحكمة، ومعهد القيروان لمتباعة دروسهم، والاستفادة من شيوخها وعلمائها والتعليم في المدارس النحوية واللغوية والفقهية والعلمية التي عرفتها الديار التونسية، وقراءة الكتب التي أنتجها ذلك العصر كتفسير **"محمد بن السلام"** ومدونة سحنون، وآداب المعلمين **لمحمد سحنون** وكتب الطب **لابن الجزار** وغيرهم[1].

وبذلك أصبحت قسنطينة تضاهي مدينتي تونس وتلمسان، وأصبحت تشغل مكانة ثقافية هامة جعلتها مركز إشعاع حضاري طيلة قرون عديدة، وبالتالي ظهرت فيها بيوتا وأسر حملت مشعل العلم والمعرفة منها أسرة **"الحسن بن الفكون"** الذي توارث أفراد عائلته عنه العلم مدة تزيد عن سبعة قرون من الزمن.
كذلك اشتهرت أسرة أخرى بالعلم في مدينة قسنطينة هي أسرة **"أحمد بن الخطيب بن قنفذ القسنطينـــي"**، التي تمتعت بسمعة علمية وتقلدت وظائف سامية مختلفة في المخزن والقضاء.
أما أسرة **ابن باديس** فقد ذاع صيتها في العهد الحفصي بحيث كانوا أصحاب علم ومناصب شرعية مخزنية لقسنطينة وكان عميد هذه الأسرة هو **حسن بن باديس** الذي عاش في القرن الثامن هجري – الرابع عشر ميلادي.

---

(1) - طمار محمد: الروابط الثقافية في الجزائر والخارج ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1983 – ص 90.

ومن خلال ما سبق يمكننا القول أو الاعتراف بأن مدينة قسنطينة صارت إحدى عواصم الإسلام الكبرى، وإحدى قلاعه العسكرية المنيعة ومنبعا لإشعاعه الفكري والحضاري، وحاضرة من حواضر العلم والثقافة، وقد ظلت على هذا الحال رغم الضعف والتفكك الذي أصاب الدولة الحفصية خاصة وبلاد المغرب عامة، بسبب الانقسامات الداخلية، والحروب الصليبية على شواطئ المغرب واحتلال الفرنجة للسواحل الشمالية مثل: بونة، جيجل، بجاية، دلس ووهران، فقد استغل بعض الأمراء من بني حفص هذه الفترة المضطربة، واستقلوا بمدينة قسنطينة عن السلطة المركزية بتونس، لكن المدينة ظلت تخضع لعرب **"الصاولة"** حينا ولرؤساء بعض الأسر القسنطينـــية، إلى أن دخلتها الحامية العثمانية بعد مقاومة شديدة أبداها أهل المدينة بزعامة شيخ الإسلام آنذاك وهو **سيدي عبد المؤمن** الذي قاوم الأتراك مع أهل حارته – باب بجاية - مدة ثلاث سنوات، لم يخضع خلالها للنفوذ التركي إلى أن تحايلوا عليه بمساعدة الشيخ **ابن الفكون** ، المؤيد للحامية التركية، والمنافس له، فقتل الأتراك شيخ الإسلام **سيدي عبد المؤمن** وتولى **ابن الفكون** المشيخة ورئاسة ركب الحجاج مكانه وتم توحيد المدينة تحت النفوذ التركي[1].

(1) - فيلالي عبد العزيز ولعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة. ص 77.


الأوضاع السياسية
والاجتماعية والإقتصادية
في مدينة قسنطينة
خلال العهد العثماني



أولا

الأوضاع السياسية

قسنطينة تحت النفوذ العثماني:

سلالة آل عثمان:

يذكر المؤرخون أن العثمانيين أو آل عثمان هم سلالة السلاطين الأتراك العثمانيين، ويرجعون بنسبهم إلى الأمير التركي **"عثمان بن أرطغرل"** وهو زعيم الترك في وادي قرصو في بلاد الأناضول.

وقد أشار المحي (خلاصة الأثر) إلى نسب العثمانيين الأتراك في معرض ترجمته للسلطان **إبراهيم** بقولة: "تقرر أن أصل بيتهم من التركمان النزالة الرحالة، وينتمي نسبهم إلى **يافث بن نوح** وهو الجد السادس والأربعون للسلطان **إبراهيم**، ولما كانت أسماؤهم أعجمية أضربت عن ذكرها لطولها واستعجامها، وربما يقع فيها التصحيف والتحريف، إن لم يضبط شيء منها، ولا حاجة إلى الإطالة فيها بلا فائدة، فإنها مذكورة في التواريخ التركية.

والمعروف أن **عثمان** ولد في مدينة **سكود** بالأناضول سنة *656* هـ -*1258* م وهو ابن الأمير التركي **أرطغرل** أحد عمال السلاجقة في قونية، يضاف إلى ما ذكرناه أن العثمانيين كانوا يتولون الإمارة حتى سنة *922* هـ *1516* م، وقد تولوا الخلافة إثر زوال حكم سلاطين المماليك، أما عدد سلاطينهم فيبلغ ستة وثلاثين سلطانا من سلالة **آل عثمان** [1].

لو أردنا التحدث عن كيفية دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر فقد نجد عدة آراء تتفق حول طريقة واحدة، وهي عدم اللجوء إلى القوة والعنف، بل كان حلولهم بالجزائر سلميا باعتبار الدولة العثمانية كانت حاملة للواء الإسلام وتدافع عن المسلمين.

ولأن الجزائر كانت تعيش ظروفا صعبة في بداية القرن السادس عشر بتفاقم الخطر الإسباني والإيطالي واحتلالهما لموانئ جزائرية وفرض الجزية على سكان هذه المدن الساحلية، فإن "الجزائريين استنجدوا بالأخوين عروج وخير الدين لإنقاذهم من الاحتلال الأوروبي لمدنهم،

---

(1) - باشا عمر موسى: تاريخ الأدب العربي. العصر العثماني. دار الفكر المعاصر. بيروت. الطبعة الأولى. 1989 م / 1409 هـ. ص ص 11-12.

وبفضل تلك المساعدة شعر أبناء الجزائر بدرجة عالية من الأمان والطمأنينة في ظل الدولة العثمانية القوية وانطلاقا من هذه الحقائق فإن العثمانيين يعتبرون منقذون وليسوا مستعمرون"[1].

والرأي نفسه نجده عند الدكتور **(جلال يحي)** حين قال: "إذا كان العثمانيون قد استخدموا السيف وسيلة لتوحيد الشرق الأدنى، فإن طريقتهم لتوحيد شمال إفريقية قد تم بوسائل أخرى، ويرجع ذلك إلى ظروف المغرب العربي في ذلك الوقت"[2].

ويقصد بقوله وسائل أخرى ربما الدعوة للإنقاذ من الغزو الأوروبي خاصة منه الإسباني بعد سقوط غرناطة وسيطرة المسيحيين عليها.

ولذلك فإن حلول الأتراك بالجزائر "لم يكن في الحقيقة احتلالا بالقوة والعنف من طرف دولة أجنبية قائمة مثلما كان يجري في غالب الأحيان من جراء عدوان أجنبي يهجم بعدده وعدته على البلاد فيغزوها ويقاتل أهلها ويفتك بهم وينهب أموالهم ويخرجهم من ديارهم ويترامى على الأراضي والدور والقرى ويفرض عليهم حكمه الجائر ويحاول أن يقضي على تقاليدهم ولغتهم وعوائدهم ودينهم كما يفرض عليهم أفكاره وعقائده وحتى تاريخه"[3].

وبذلك فقد أعطى العثمانيون للجزائر الاستقرار اللازم والنسبي لذلك العصر ووضعوا حدا للتقلبات التي كانت تثيرها الحروب المحلية والفتن كما أحبط الأتراك أطماع الأسبان الذين كانوا على وشك السيطرة التامة على الجزائر والبلاد المغربية رغم أن هؤلاء المنقذين ليسوا إلا قراصنة لم تكن لهم مسؤولية ولا نفوذ سياسي إلا ما كانت تكسبه أيديهم من قوة وبطش.

---

(1) – بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1997. ص52.

(2) - يحي. جلال: العالم العربي الحديث والمعاصر. المكتب الجامعي الحديث. ج1. ص 33.

(3) - بن أشنهو عبد الحميد بن أبي زيان: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. الطباعة الشعبية للجيش (د. ت). ص 09.

وقد كانت قسنطينة المدينة الثانية بعد الجزائر العاصمة في العهد العثماني وكانت هي عاصمة الشرق كله، لكن إذا أردنا أو حاولنا تحديد تاريخ دخول الأتراك إليها فإننا نجد أنفسنا أمام تعدد واختلاف روايات المؤرخين، وأمام أكثر من تاريخ يحدد بداية السيطرة العثمانية على مدينة قسنطينة فالأنبيري مثلا يجعله سنة 927هـ-1525م أي في عهد خير الدين باشا، أما ابن دينار فيجعله سنة 932 هـ حين انتهاء الحكم الحفصي فيها، وأما مؤرخ قسنطينة ابن العطار فإنه يذكر في كتابه الشهير "تاريخ قسنطينة" أن دخول الأتراك إلى قسنطينة كان سنة 925 هـ - 1520م بقوله: "وهاجمها -حسن- قائد خير الدين سنة 1519م أو سنة 1520م - 925هـ واحتلها ثم خرجت عن الترك ودخلت تحت الحكم الحفصي مرة أخرى، وكان فيها ممثلهم سنة 933هـ - 1526م/ 1527م. واستردها الترك سنة 1534م- 940هـ ودعّموا حكمهم فيها"(1).

إلا أن المؤرخ العنتري من خلال كتابه "بايات قسنطينة" يجعله في ولاية "**فرحات باي**" سنة 1052هـ.

وأمام هذه الاختلافات والتباين في تحديد تاريخ إخضاع المدينة تحت النفوذ العثماني نجد المؤرخ "**عبد الرحمن بن محمد الجيلالي**" يرى أنه "من المحقق تاريخيا أن الأتراك تمكنوا من قسنطينة إثر وقعة وادي القطن بين ميلة وقسنطينة. حيث احتلها أتراك بونة وتونس سنة 962هـ-1555م والحال أنهم وجدوا بها منذ سنة 941هـ- 1535م ولكننا لا نعلم صفة ذلك وكيفية الغزو أو نوعية الفتح والاحتلال"(2).

ومن أقوال المؤرخين السالفة الذكر يتجلى لنا أن الحكم التركي في قسنطينة قد استقر تدريجيا، وبهذا يمكننا التوفيق بين الأنباء والروايات المختلفة إذ لكل رواية نصيب من الصحة وكل ذلك يرجع إلى حدة الخلاف السياسي الذي كان موجودا بين صفوف أهل المدينة وانقسامهم بين مؤيد ومعارض للتواجد التركي على أراضي قسنطينة، وقد أدى هذا إلى اندلاع ثورات شعبية ضد الأتراك بين الحين والآخر فتسود الفوضى ويعم الاضطراب

---

(1) - ابن العطار: تاريخ قسنطينة ص 20.

(2) - الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام. ط6. بيروت. 1983. ج3.ص 88.

وأمام كل ذلك: "نزل الباشا محمد بن الصالح رايس مدينة قسنطينة فدخلها دخول الفاتح الظافر وقد أحجم سكانها عن إبداء أي دفاع إذ هدد الباشا بالإعدام كل من ثبتت مشاركته مع الثوار وإهانة كل من حامت حوله شبهة المشاركة فيها، وفرض على المدينة غرامة مالية بمبلغ ستين ألف دوبله - الدوبله الواحدة تساوي ست ريـــالات ونصف، وعمل لتهدئة الحالة، وولى على المدينة: رمضان باي تشولاق "ويقال أنه أول باي سمى قسنطينة"[1].

في حين نجد العنتري في كتابه "بايات قسنطينة" يجعل "فرحات باي" هو أول من حكم قسنطينة من البايات ثم جاء بعده (41) بايا كان آخرهم الحاج أحمد باي بن محمد الشريف. ولم يذكر ابن العطار من هؤلاء الاثنين والأربعين بايا سوى ستة فقط، وهم: حسين كلياني، حسن بوحنك، حسن باي أزرق عينه، أحمد باي القلي، صالح باي، احمد شاوش باي القبائلي.

كما ذكر ابن العطار سياسة الحكم كيف كانت في مدينة قسنطينة مقسمة بين الأتراك وأهالي قسنطينة بعد الصلح الذي تم بينهم "فكان تصريف الوطن بينهم أثلاثا، ثلثه لابن علي شيخ العرب، وثلثه لشيخ نجع الحنانشة، وثلثه لحاكم الترك، وتعاهدوا على هذا واصطلحوا عليه ومن ذلك الوقت بقيت العادة إلى وقتنا هذا أن الباي إذا أتته خلعة الولاية من الجزائر يلبسها هو الأول ثم يبعث بها إلى شيخ العرب، وبعده إلى شيخ الحنانشة"[2].

والمؤرخ حين قال: "بقيت العادة إلى وقتنا"، كان يقصد أواخر العهد التركي. ولأن ولاية قسنطينة كانت هي أوسع الولايات مساحة وأكثرها عمرانا فقد كانت هي عاصمة بايلك الشرق وهذا الاسم يطلق على جهازها الإداري في عهد الأتراك وكانت آنذاك تمتد من الحدود التونسية شرقا حتى بلاد القبائل الكبرى غربا ويحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء، والمتصرف فيها تصرفا مطلقا هو الباي الذي يعود أمر تنصيبه أو عزله إلى باشا الجزائر.

---

(1) - ابن شغيب محمد المهدي: أم الحواضر. ص 132.

(2) - ابن العطار: تاريخ قسنطينة ص 56.

ودولة الباي هذه تتكون من موظفين كبارهم:

الخليفة اليوتنان.

النقات: وهو رئيس بيت المال.

الباش كاتب: وهو كبير الكتاب (الكاتب الأول).

وآغا الدائرة: وهو رئيس فرقة الفرسان.

والباش سيار: وهو رئيس البريد.

والباش سايس: وهو رئيس المشرفين على إسطبلات الخيول.

وشاوش الكرسي: هذا المنصب يقوم به اثنان يلازمان الباي ويحرسانه ويبلغان أوامره الشفاهية إلى العامة وينفذان أحكامه بالإعدام.

وقايد الدار: ووظيفته قريبة من وظيفة شيخ المدينة. وهناك وظائف ثانوية أخرى منها :باش علام، باش طبال، وآغا الصبايحية وباش محلة[1].

هذا بالنسبة لداخلية المدينة أما بالنسبة لخارجها فيعين الباي شيوخا للعشائر مثلما ذكرنا سابقا.

أما القوات المسلحة للباي فتتألف من ثلاثمائة جندي تركي موزعين على عشرين سفارة، ثم الأنصار المتطوعين وجلهم من القبائل ولاسيما قبائل الزواوة، ثم عرش الزمول المستقرين بناحية عين مليلة كما أن رجال هذا العرش يقومون بخدمة الباي مقابل إعفائهم من المغرم[2].

رغم أن الحكم التركي تسرب إلى الجزائر بصفة يمكن القول عنها أنها شبه سلمية حيث أنها كانت بطلب من الأهالي أنفسهم الذين كانوا يستغيثون بالأتراك المغامرين ليدرؤوا عنهم العدو الإسباني الذي حل بشواطئهم إلا أن القوة والعنف اللذين كانت تكتسبهما أيديهم مكنهم من بسط النفوذ على البلاد، لكن هذا النفوذ الشبه سلمي لم يمنع من ظهور بعض الثورات الشعبية التي ثارت في وجه الأتراك تنادي بإبعادهم عن الحكم ووضعه في أياد

---

(1) - محمد المهدي: أم الحواضر: ص 214.

(2) - المرجع نفسه: ص 215.

جزائرية أصلا ومن أبرز هذه الثورات ثورة "أحمد الصخري" والتي تعد أكبر ثورة حدثت في الشرق الجزائري خلال العهد العثماني.

وقد كان ذلك سنة 1047 هـــ فقد هزت هذه الثورة أركان النظام العثماني وكادت تطيح به لأنها استعملت المنطقة الواقعة بين الزاب وحدود تونس إلى حدود السلطة المركزية بالجزائر وضواحيها، وقد طالت مدة هذه الثورة مما تسبب في سقوط عدد من الباشوات، وعدد كبير من الأرواح وبسببها عمت مدينة قسنطينة فوضى كبيرة.

لكن الوثائق التي تتحدث عن هذه الثورة نادرة جدا و لم نجد من تحدث عنها سوى الدكتور أبو القاسم سعد الله في الجزء الأول من كتابه 'تاريخ الجزائر الثقافي' وخلاصة هذه الثورة أن شيخ العرب "محمد بن الصخري بن بوعكاز العلوي الهلالي قائد الذواودة الحنانشة" وقد زار مراد باي حاكم قسنطينة سنة 1047هـــ في مكان خارج المدينة لكن الباي اتهمه بالخروج عن الطاعة وأمسكه سجينا عنده وشاور في أمره باشا الجزائر والديوان فأشاروا عليه بقتله فقتله هو وابنه أحمد وقتل معه ستة من أعيان العرب وبعد أن علقوا رؤوسهم على الخيمة العسكرية مدة من الزمن نقلت الرؤوس إلى قسنطينة وعلقوها مرة أخرى وليس من بينها رأس ابن الصخري وابنه وبعد مرور عام على هذه الحادثة أي سنة 1048هـــ ثار احمد بن الصخري وهو أخ للقتيل، وقاد جموع العرب والحنانشة والذواودة ونظم صفوفهم ضد العثمانيين، وقد هاجم الثوار مدينة قسنطينة وغيرها وجاءت النجدات والإعانات إلى مراد باي من الجزائر، وامتدت الثورة إلى الزيبان والصحراء وعنابة، ومن المعارك التي سجل فيها الثوار انتصاراتهم معركة كجال، التي فر خلالها مراد باي و لم يعرف مصيره بعدها كما قتل فيها كاتبه شريط بن صولة وأثناء هذه الثورة الخطيرة عدل يوسف باشا عن إعلان الجهاد ضد الأسبان في وهران وجاء بنفسه لمواجهة الثوار فأقام سنة في قسنطينة وتوجه إلى الزيبان، ولكن الثورة استمرت، وقد جند الباشا كل الوسائل للقضاء عليها مثل مكاتبته لأهل الرأي والعلماء وطلب مساعدتهم وتهديد المنشقين بالويل والثبور.

أما في فترة حكم **عثمان باي** فأشهر ثورة شعبية ضد الحكم التركي كانت ثورة ابن الأحرش وقد ذكرت هذه الثورة في العديد من المصادر والمراجع التاريخية، فصالح العنتري

مثلا يرى أنها "هول وقع بالوطن سببه رجل قام يدّعي الشرف ناحية أعراش وادي الزهور اسمه **سي محمد بن عبد الله الشريف**[1]، كما يصف **أبو رأس الناصري** هذه الثورة بقوله: "عمتنا فتنة درقاوة، وأنا لم نكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة... فاتصلت علينا أواصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع"[2].

وبالوصف نفسه وصفها **الشريف الزهار.**

فالأخبار المتداولة حول هذه الثورة تكاد تجمع كلها على تأييد الحكام الأتراك وتتفق في أغلبها على مناهضة الثائرين ومناصرة المعارضين للثورة من سكان المدن.

وقد وقعت ثورة **ابن الأحرش سنة *1218*** هـ - *1803* م كما ذكر العنتري، أما **ابن المبارك** فيذكر في كتابه تاريخ قسنطينة أنها وقعت سنة *1219* هـ - *1804* م.

أما عن زعيم هذه الثورة فهو **محمد بن عبد الله بن الأحرش** قال **الزياني** عنه: فتي مغربي مالكي مذهبا درقاوي، طريقة درعي نسبا[3].

وقال عنه الشيخ المبارك: هو رجل مغربي يزعم أنه من شرفاء فاس[4] . **وابن الأحرش** اشتهر ببلاغة أسلوبه في الحديث وفصاحة لسانه في مخاطبة الناس، وهذا ما ساعده على استمالة القبائل التي اتصل بها في المناطق الواقعة ما بين جيجل والقل وميلة، و لم يلبث أن اكتسب الأنصار والمؤيدين في مختلف قبائل تلك الجهة، وأصبحت كلمته مسموعة ومطاعة عند أهالي الوادي الكبير وجبال زواغة وناحية وادي الزهور، وبدأ **ابن الأحرش** يخطط لإعلان الثورة على سلطة البايلك فجمع حوله الأنصار من مختلف القبائل القاطنة في المنطقة الممتدة من

---

(1) - العنتري صالح: مجاعات قسنطينة. تحقيق رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1394 هـ. 1974 م ص 29.

(2) - الناصري أبو رأس: درء الشقاوة في فتنة درقاوة. نقلا عن مقدمة الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي. قسنطينة 1973 ص 46.

(3) - الزياني، محمد يوسف.دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق الشيخ المهدي البوعبدلي – الجزائر 1979 ص 27.

(4) - ابن العطار : تاريخ قسنطينة ص 46.

ساحل البحر إلى نواحي قسنطينة، وقد قدر الشيخ **المبارك** عدد أنصاره في تلك القبائل بمائة ألف رجل.

وقد استغل **ابن الأحرش** غياب حاكم قسنطينة **عثمان باي** بالجهات الغربية من البايلك لجمع الضرائب وسار في جموع غفيرة من رجال القبائل، ذكر **العنتري** أنها كانت تبلغ العشرة ألاف محارب[1].

وعندما وصلت طلائع **ابن الأحرش** ضاحية سيدي محمد الغراب القريبة من قسنطينة خرج للتصدي لها قائد الدار الحاج **أحمد بن الأبيض** الذي كان يتولى أمور قسنطينة في غياب الباي، فوقعت بينهم مناوشات حادة، وازداد ضغط المهاجمين فتراجع ابن الأبيض ومن معه داخل الأسوار لمنع تسرب **ابن الأحرش** إلى داخل المدينة.

وقد نجحوا في ذلك فعلا فلم يستطع ابن الأحرش السيطرة على المدينة والدخول إليها رغم محاولة البعض، وقد اكتفى بالاستيلاء على الضواحي الواقعة بالقرب من المدينة مثل كدية عاتي وبارود وكان ابن الأبيض وسكان المدينة يدافعون على المدينة باستماتة منقطعة النظير واستعانوا بالمدفعية التي فرقت جموع القبائل التي تجمهرت بالقرب من الفنادق والاصطبلات التي أضرموا فيها النيران باعتبارها من أملاك الباي، وبهذا تراجع ابن الأحرش ومن معه بعد أن أصيب بجروح بليغة، وحمل من طرف أتباعه إلى بني فرقان ليعالج من جروحه على يد أحد المشتغلين بالطب بمدينة جيجل.

وقد انتهى خبر الهجوم على قسنطينة إلى الباي عثمان وهو في رحلة العودة من الجزائر بعد أن قدم الضرائب السنوية المتوجبة على البايلك[2]، فاجتاز بسرعة وطن ريغة بناحية البابور وسارع إلى الالتحاق بقسنطينة عن طريق ميلة، وعند وصوله سارع إلى إعادة تنظيم الدفاع عن المدينة والاستعداد لملاحقة ابن الأحرش وايقاع الهزيمة به، خاصة وأن داي الجزائر بعث إليه بخطاب جديد اللهجة يحثه فيه عن معاقبة الثائرين ويأمره بالقضاء على ابن الأحرش، فغادر الباي عثمان قسنطينة متوجها إلى ناحية وادي الزهور حيث يقوم ابن

---

(1) - العنتري: مجاعات قسنطينة. ص 30.

(2)- ذكر الشيخ ابن المبارك ابن العطار أن الباي عثمان كان يجمع الضرائب ناحية ريغة. المرجع نفسه. ص 47.

الأحرش على رأس قوته العسكرية، وعندما وصل الباي إلى مشرق أراضي بني الفرقان بناحية وادي الزهور قام بتحركات عسكرية قصد تخويف السكان وإشعارهم بهيبة البايلك، فقدم إليه بعض أفراد قبائل تلك الجهة يظهرون له الطاعة ويطلبون الإمداد للقبض على الثائر ابن الأحرش، وقد أورد الشيخ ابن المبارك مخاطبة هؤلاء الأفراد للباي بالعبارة الآتية "ابعث معنا الخيل نمسك الشريف ونأتوك به وذلك مكر منهم وخديعة"[1]، فأرسل الباي فرقة من الفرسان تتكون من حوالي خمسمائة فارس يقودها أغا المحلة إلى ناحية وادي الزهور، لكن عند وصولهم فوجؤوا بإطلاق النار عليهم ومحاصرة القبائل لهم من كل جهة فاحتموا بسفح جبل قريب، وبقوا هناك محاصرين لمدة أربعة أيام. ولما بلغ خبر الفرسان المحاصرين الباي عثمان لم يتردد في نجدة فرسانه وأمر المعسكر بالارتحال إلى واد الزهور وهناك وقعت بينه وبين جماعات القبائل اشتباكات حادة تمكن إثرها فرسان الباي من فك حصارهم والنجاة بأنفسهم، لكن الباي لم يستطع التراجع بعسكره بعد أن سد الطريق بقطع الأشجار وإقامة الحواجز فاضطر أن يعسكر في سهل وادي الزهور، وفي الليل تحول المعسكر إلى مستنقع من جراء نزول الأمطار بسبب تحويل القبائل مسيل وادي الزهور من مجراه الطبيعي إلى المكان الذي كان يخيم فيه الباي فاستحال على الباي وجيشه التنقل في هذا المستنقع و لم يعد في مقدوره استعمال المدفعية، أو ركوب الخيل فكانت الهزيمة النكراء، أما عن مصرع **عثمان باي** فقد اتفقت أغلب الروايات على أنه قتل في حينه، وذلك حين أراد التراجع إلى ناحية الميلية وكانت الطريق ضيقة ومنحدرة فكبابه جواده فاغتنم أحد أعدائه الفرصة، وهو مرابط يدعى **الزبوشي** فطعنه بسيفه وأرداه قتيلا، وجز رأسه أحد أفراد القبيلة، وبقيت جثته ملقاة في العراء مع الكثير من أفراد جيشه، وبعد خمسة أيام من هذه الحادثة أقبل نفر من قبيلة أولاد عواط ونقلوا جثة الباي إلى أرضهم، ودفنوه فيها وقبره باق إلى يومنا، وقد كتب عليه العبارة التالية : هذا ضريح المرحوم السيد **عثمان باي بن محمد** باي قسنطينة الذي كان قتل بهذه الأرض المسماة **"اخناق عليهم"** من بلاد أولاد عواط في سنة *1219*هـــ- *1804*م[2].

(1)- ابن العطار. المرجع السابق .ص 48.

(2)- ابن شغيب محمد المهدي: أم الحواضر. ص 391.

وهكذا كانت نهاية **عثمان باي** بعد أن دامت ولايته لمدينة قسنطينة ثلاثين شهرا تقريبا، أما **ابن الأحرش** فقد واجه من الصعاب ما لا يعد ولا يحصى من ملاحقة الجيش التركي له في كل مكان تترد الأخبار أنه فيه، كما أن الباي الجديد الذي عين على ولاية قسنطينة **"عبد الله بن إسماعيل"** لم يتوان لحظة في ملاحقته وقطع دابر كل محاولة لثورته من جديد مثلما حدث في ناحية بجاية حيث استطاع الجيش التركي أن يلحق بجموع **ابن الأحرش** هزيمة نكراء مما أدى به إلى الالتحاق بجموع درقاوة بالغرب الجزائري التي أعلنت الثورة على الأتراك بزعامة **ابن الشريف عبد القادر الدرقاوي.**

وفي هذه الظروف تتداول أخبار موت **ابن الأحرش** إلى أن تصل حد أن الباي **محمد بن عثمان** المعروف **ببوكابوس** (1223 هـ - 1228هـ / 1807 م – 1813م) تمكن من هدم دار منسوبة إلى **ابن الأحرش** بجبال طرارة شمال غرب تلمسان في إحدى حملاته على تلك الجهة لملاحقة أتباع درقاوة، وهنا يختفي ذكر **ابن الأحرش** نهائيا عن مسرح الأحداث، في حين تذكر مصادر أخرى أنه قتل على يد **ابن الشريف الدرقاوي** حيث انه رأى فيه منافسا خطيرا. وهكذا تنتهي ثورة **ابن الأحرش** كما انتهت كل الثورات التي ثارت ضد الحكم التركي.

لم تكن الأوضاع السياسية في قسنطينة تهتز وتتدهور جراء الثورات الشعبية والانتفاضات القبائلية فقط، بل هناك فجوات بين البايات تؤدي إلى حدوث الهجومات العسكرية فيما بينهم، فهذا **حمودة باشا** حاكم تونس قد أحجم عن إرسال شحنة الزيت التي تعود بعثها إلى الجزائر، وقد فعل ذلك ليعلن عن بداية اللامبالاة ونية الخروج عن الطاعة، وبمجر وصول الخبر إلى الجزائر اغتاظ الداي **أحمد باشا** غيظا شديدا لذلك السلوك، مع الإشارة إلى أن باي قسنطينة في تلك الفترة كان شابا بدون تجربة وهو الباي **مصطفى أنقليز** كما ورد في كتاب ابن مبارك " تاريخ قسنطينة ".

ولذلك أراد **حمودة باشا** أن يغتنم تلك الفرصة، فأرسل إلى قسنطينة سنة (1221هـ - 1806م) جيشا ضخما وحاصرها مدة سبعة عشرة يوما وضربها بالمدفعية والقنابل وكاد أن يفتحها، ولكن سكانها أبدوا مقاومة مستميتة، إلى أن جاءهم النجدة من مدينة الجزائر،

وتقدم الآغا على رأس أحد الجيوش وهزم الجيش التونسي، ثم قفل راجعا إلى الجزائر ومعه خمسمائة أسير من التونسيين.

لكن **أحمد باشا** كما ذكر صاحب المرآة: "كان عبدا لهواه وقاسيا، فقتل الآغا الذي عاد منتصرا واستولى على ثرواته، وعين بعدها ابن أخيه ليخلف من أقدم على التضحية به، ثم نظم جيشا آخر ضد تونس وأرسل مبلغا هاما من المال إلى قسنطينة لسد حاجيات الحرب، عند ذلك قام الأتراك المكونون لحامية قسنطينة بثورة، وقتلوا باي. تلك المقاطعة وكذلك الآغا الجديد الذي هو ابن أخ الباشا، ولما رجعوا إلى الجزائر أشعلوا ثورة أخرى فقتل **أحمد باشا** وجيء **بعلي باشا** مكانه[1].

وهكذا يمكننا القول أن الأوضاع السياسية في قسنطينة خلال العهد العثماني لم تكن مستقرة أتم الاستقرار ولا مضطربة طول السنة، فكانت تضطرب وتستقر باختلاف الحكام والبايات عليها منذ دخول الأتراك إليها، واستقرار حكمهم فيها إلى نهاية ذلك بخلافة **أحمد باي** عليها وخروجه منها على يد الاستعمار الفرنسي الذي أخضع مدينة قسنطينة تحت نفوذه سنة *1837*م، بعد مقاومة عنيفة وطويلة الأمد، واجهها الفرنسيون من طرف **أحمد باي** هذا الأخير الذي اضطر إلى الخروج منها والاتجاه إلى الصحراء، أين استمرت مقاومته للاستعمار الفرنسي.

---

(1) - خوجة حمدان بن عثمان: المرآة. تقديم وتعريب وتحقيق د/ محمد العربي الزبيري. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1975م. ص 167.


ثانيا
الأوضاع الاجتماعية

الأوضاع الاجتماعية:

اختلفت بعض الإحصاءات واتفق البعض الآخر حول عدد سكان مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، ولأن إقليم قسنطينة هو أكبر الأقاليم الثلاثة مساحة فقد جعل هذا القنصل الأمريكي **شيلر** يقر بأن نصف سكان الجزائر كانوا في إقليم قسنطينة وحده، وقد قدر ذلك بخمسة وعشرون ألف نسمة(1).

كما أن **بانانتي** الإيطالي الذي قدر سكان مدينة الجزائر بمائة وعشرين ألف نسمة، قد جعل سكان قسنطينة مائة ألف نسمة، وقال الكاتب الفرنسي **"ديفونتين"** عن قسنطينة في القرن *18*م بأنها آهلة بالسكان وأنها أكبر وأجمل من مدينة الجزائر، وحسب رواية **بوجولا** فإن عدد سكان قسنطينة قد بلغ قبيل الاستيلاء على المدينة حوالي *40* ألف نسمة(2).

كما ذكر القبطان **هيبوليت** الضابط بهيئة الأركان الفرنسية " أن عدد سكان المدينة في العهد التركي وقبيل الاحتلال الفرنسي يتراوح ما بين *25* و*30* ألف نسمة من حضر ويهود وعرب(3).

أما إذا حاولنا تصنيف السكان حسب أصولهم فإننا نجد أربع مجموعات عرقية متمايزة هي القبائل والعرب والترك واليهود.

أما عن القبائل فتختلف مجموعتهم عن باقي السكان العرب بالبايلك لا من حيث لغتهم فقط وإنما أيضا من حيث عاداتهم وأسلوب معيشتهم.

ثانيا العرب: وهم بدو يسكنون الخيم، ثروتهم الوحيدة امتلاكهم للماشية، والعرب ينقسمون إلى عرب وشاوية لهم عادات واحدة ولا يختلفون إلا في اللغة حيث يتكلم الشاوية لغة خاصة لا تشبه لغات العرب الآخرين.

ثالثا الأتراك: وهم العنصر الحاكم للبلاد.

---

(1) - شيلر وليام: مذكرات وليام شيلر. "قنصل أمريكا في الزائر 1816/ 1824م. تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي :الجزائر 1982م ص36.

(2) – الأشرف. مصطفى: الجزائر الأمة والمجتمع: ترجمة د/ حنفي بن عيسى. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1983م ص219.

(3) - لعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة. ديوان المطبوعات الجامعية. 1984م. ص82.

رابعا اليهود: قد كانوا يخضعون لقائد يعرف بالمقدم أثناء حكم البايات وقد خص لهم صالح باي منطقة الشارع وهي تقع ما بين باب القنطرة وحافة الهاوية، فبنوا فيها منازلهم ودكاكينهم[1].

وعلى العكس من هذا التقسيم العرقي لسكان بايلك الشرق يوجد هناك تقسيم أو تصنيف يمكن القول عنه أنه تقسيم طبقي من الناحية الاجتماعية، حيث يمكننا من اكتشاف عدة فئات يتكون منها المجتمع القسنطينـــي آنذاك وهي:

الفئة الأولى أو الطبقة الأولى:

تتكون هذه الفئة من العثمانيين الأتراك الذين كانوا يتربعون على قمة الهرم الاجتماعي، بيدهم الحكم والسلطة والوظائف العليا وقيادة الجيش.

الفئة الثانية:

وهم الموالون وقد ظهر هذا العنصر الجديد باستقرار العثمانيين في المدينة، وهم من أمهات جزائريات، كما يطلق على هذا الصنف اسم **الكراغلة** لكن هؤلاء لم يسمح لهم بالارتقاء إلى مصاف الفئة الأولى على عكس من كانت أمهاتهم مسيحيات أو أوربيات.

الفئة الثالثة:

تتألف هذه الفئة من الحضر وهم الكثرة الغالبة، وتشمل العائلات القديمة التي استوطنت المدينة منذ أحقاب، كما تشمل العائلات الحضرية الطارئة من الأندلس وبجاية

---

(1) - سعيدوني ناصر: مذكرة حول إقليم قسنطينة. مجلة الأصالة. العدد 70 – 71 ص ص 14 – 15.

وتونس، ومعظم عناصر هذه الفئة من العلماء والفقهاء والتجار وأصحاب الحرف والصنائع والكتاب الإداريين.

الفئة الرابعة:

تتكون هذه الفئة من العمال الفصليين غير الدائمين الذين يقصدون المدينة من النواحي المجاورة قصد العمل عند أهل المدينة، فتتوفر لهم فرص العمل في المصانع والحمامات والمخابز والورشات والدكاكين، ثم يغادرون مساء إلى منازلهم ليعودوا صباحا.

بالإضافة إلى هذه الفئات كان هناك كثير من الزنوج والأسرى المسيحيين الذين يسخّرون للأعمال اليدوية والأعمال الفنية أو يخضعون إلى حرس الباي وجيشه.

لقد عاشت هذه الفئات في ظل هدوء نسبي فيما بينها، بفضل تحالفهم وخاصة عندما يداهمهم الخطر المشترك[1].

---

(1) - فيلالي عبد العزيز ولعروق عبد الهادي: مدينة قسنطينة... ص ص 85 – 86.

ثالثا

الأوضاع الاقتصادية

الأوضاع الاقتصادية:

لقد عاشت مدينة قسنطينة حركة اقتصادية هامة في العهد العثماني واستطاعت بحيويتها أن تفرض استقطابا على الأرياف المجاورة، بعد نزوح سكانها بحثا عن فرص العمل والاستقرار، وكان نفوذها التجاري يمتد حتى تونس وليبيا اللتان تستوردان منها الملابس المطرزة والأقمشة الحريرية والتوابل وتصدران لها الجلود والشموع والحبوب واللحوم، كما كانت لها اتفاقيات تجارية مع اسبانيا وجنوه ومرسيليا بواسطة موانئ جيجل والقل وسكيكدة التابعة لحكمها الإداري والسياسي[1].

وقد غلب الطابع الفلاحي على نشاط السكان القسنطينيين مقارنة بما يمارسونه من صناعة، فكانت بذلك الزراعة هي المورد الرئيسي الذي يؤمن معيشة غالبية السكان، وأصبحت تربية المواشي حرفة مكملة لزراعة أراضي العرش الجماعية، وقد اشتهرت قسنطينة بزراعة الحبوب والبساتين التي تحتوي على مختلف الأشجار المثمرة، ومما ساعد إقليم قسنطينة على وجود هذه الزراعات هو "المغياثية الكافية للزراعات اليابسة على التمام، تستفيد فيما حولها من مجاورة جبال مروية جدا ومن معدل الثلوج الهامة في كثير من الأحيان"[2].

ورغم ذلك فقد تبخل السماء أحيانا على سكان قسنطينة بالأمطار إلى حد الجفاف الذي يحدث مجاعة حادة يهلك فيها الكثير من السكان مثلما حدث ذلك في سنة *1805*م زمان حكم الباي **عثمان** وقد دامت المجاعة ثلاث سنين متتالية أضرت بالسكان ضررا فادحا "حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مملا لا يباح اقتياته"[3].

ومن نتائج هذه المجاعة على أهل المدينة هو ارتفاع أسعار الحبوب التي كانت الغذاء الأول للسكان " فبيع الصاع الواحد من البر وقتئذ بخمسة عشر أريالة سكة الوقت، والصاع من

---

(1) - لعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة. ص 80.

(2) - إيف لاكوست وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر. تعريب. رابح اسطنبولي وآخرون. المطبوعات الجامعية. باريس 1950. ص 35.

(3) - العنتري صالح. مجاعات قسنطينة. ص 34.

الشعير بسبعة أريالات"[1]، ولولا حكمة بعض الولاة في هذه المحنة لهلك الناس جميعا حيث يروى أن "عبد الله باي" كان يكاتب كبار الأعراش ويطلب منهم أن يحضروا الحبوب والزرع إلى أسواق المدينة وبيعه هناك ليكتال منه الناس كما طالب أعيان البلدة بإخراج ما عندهم من فائض في الزرع، وهكذا شيئا فشيئا حتى أصبح الزرع يدخل المدينة ويتداول فيها، وخاصة من ناحية ريغة وفرجيوة، إلى أن رفع الله عن عباده الضر.

ومما يكتبه التاريخ حسنة للباي عبد الله أيضا أنه لم يطالب السكان بالمطلب المخزني -وهو الضريبة التي كان السكان يدفعونها للباي- في تلك السنة بل تركه للرعية والأجمل في ذلك أن هذا الأمر أصبح فيما بعد أمرا مقتدى به. إلا أن بعض البايات كان لا يتوان عن طلبه مهما كانت الظروف وإنما يتربص بطلبه ما إن تيسر أحوال الناس فيأخذ منهم مباشرة، وهذا إن دل على شيء إنما على ضعف خزينة البايلك.

أما عن النشاط الصناعي فكما ذكرنا سابقا فهو رغم بساطته واعتماده على بعض الصناعات المحلية اليدوية وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة إلا أنه ساهم بشكل فعال في إنعاش الحركة التجارية للبايلك من خلال عملية التصدير، "فقد كانت قسنطينة قبل الاحتلال تضم ثلاثة وثلاثين مجلدة وخمسا وسبعين مصنعا للسروج ومائة وسبعة وستين إسكافيا"[2].

"كما كان لها ثمانية وعشرون سوقا وسويقة وواحد وعشرون ساباطا وسبع تربيعات يتجمع بها صناع النسوج وثلاث رحبات لعرض السلع وثلاثة أفران لطهي الخبز، وسبعة وعشرون مطحنة للحبوب منها خمس داخل المدينة، تعالج يوميا ما يعادل ستمائة قنطار من الدقيق"[3].

وبناء على إحصاء أجراه الفرنسيون إثر احتلالهم للمدينة فإن عدد الأفران فيها ثمانية عشر فرنا كل واحد منها ينتج يوميا مائة خبزه.

---

(1) - المرجع السابق. ص 34.

(2) - سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800 – 1830م. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - مطبعة أحمد زبانة- الجزائر 1979 م. ص 35.

(3) - لعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة.ص81.

كما ذكر أحد الرحالة أن هناك مصنعا للبارود تشرف عليه الحكومة بمدينة قسنطينة قرب القصبة يعمل به عشرون عاملا، ولا تقل أهميته الحربية عن فن تذويب الحديد الذي يقوم بخدمته الأسرى المسيحيون بباب الواد بمحاذاة أسوار مدينة الجزائر[1].

وباختلاف هذه الصناعات كانت مدينة قسنطينة ملتقى للقوافل التجارية التي تجوب أنحاء الشرق الجزائري.

ونتيجة لهذا النشاط الزراعي والصناعي اللذين كانت مدينة قسنطينة تزخر بهما فقد عد دنوش قسنطينة من أغنى دنوش الجزائر، و"الدنوش هي الضرائب المفروضة على باي المدينة يأخذها كل ستة أشهر إلى داي الجزائر قبل أن يحدث هذا عليه أن يجمع الضرائب من الأهالي أولا، كما تسمى العشور والزكاة، وتعتبر العشور من الضرائب الشرعية المباشرة التي تمس أراضي الملكية الخاصة الخاضعة لمراقبة البايلك الفعلية، حيث يتوجب على القبائل القاطنة بالبايلك تقديم مقدار من الحبوب تحدد كميته حسب أهمية الأرض المزروعة، وقد ظل العمل بهذا المبدأ جاريا في عهد **أحمد باي** ومن سبقه من البايات حتى سقوط مدينة الجزائر في أيدي الاحتلال الفرنسي واستيلاء الجيش البفرنسي على عنابة الذي حال دون تصدير الحبوب إلى الخارج، وحينئذ لجأ **أحمد باي** إلى وسيلة أخرى عرفت بالحكورة، حيث أصبحت القبائل بمقتضاه تدفع وسطا من الضرائب المفروضة عليها نقدا والباقي تدفعه عينا كما جرت به العادة في الحكور والعشور"[2].

وكان العشور في هذه الفترة يقدر بعشرة بسيطات (*Bacetas*) من فئة *2.5* ف على الجابدة الواحدة، على أن القبائل التي تساهم بإمداد الفرسان للبايلك لم تكن مطالبة إلا بأربعة بسيطات فقط.

أما العشور فهو يقدر بصاع من القمح وصاع من الشعير بالنسبة لكل جابدة على أنه لم يكن مطابقا على كل القبائل، فهناك بعض العشائر التي ظلت محتفظة بطريقتها الخاصة في تسديد ضرائبها، وهناك البعض الأخر يكتفي بدفع مقدار معين من المطالب المخزنية[3].

---

(1) - المرجع السابق. ص 36.

(2) - سعيدوني ناصر الدين: مقالة. مذكرة حول إقليم قسنطينة. مجلة الأصالة العدد 70/ 71.ص ص 11-12.

(3) – المرجع نفسه. ص ص11-12.

وبعد أن تتم عملية جمع الضرائب المحلية داخل أسوار البايلك، يكلف الباي بتسليم الضرائب وحمل نصيب منها إلى الجزائر كل ستة شهور، حيث انه يكلف خليفة من طرف داي الجزائر بذلك ويكون مصحوبا بقوة عسكرية "المحلة" لاستخلاص الضرائب من بايلك قسنطينة، وتتشكل هذه المحلة من 60 خيمة وتتألف الخيمة الواحدة من 25 رجلا وعندما تلتقي هذه القوة العسكرية بالباي عند قصر الطير*، تلتحق به 40 خيمة بينما 20 خيمة الأخرى يجوب بها الخليفة ساحل البابور وفرجيوة وزواغة والموبة وبني ولبان وبني مهنة وايدوغ وساحل عنابة ومرداس وبني صالح[1].

أما الباي أحمد فيتوجه بماله من قوة عسكرية إلى أولاد الساحلية بمنطقة بو طالب وأولاد سلطان والحراكتة والحنانشة، ويلتقي بالخليفة بفج العرب ليعودا بعد ذلك مع الحلة إلة قسنطينة.

ثم يتوجه الخليفة إلى الجزائر بعد أن يمكث في قسنطينة مدة شهرين أو ثلاثة أشهر لتقديم مستخلصات الضرائب (الدنوش الصغرى) تحرسه في طريقه قوة عسكرية مكونة من عشرة خيام، يأخذها من الحامية التركية المعسكرة بالقصبة ثم لا يلبث أن يعود بعد ذلك من الجزائر مصحوبا بستين خيمة لاستخلاص الضرائب مرة أخرى، وهذا ما يحدث كل سنة.

أما القوة التركية التي بقيت فيتكفل الباي بتوفير وسائل النقل لها، وإمدادها بما تحتاجه من رعاية وتغذية، كما يقدم لها أجرة شهرية تقدر بريالين (80 أ ف) عن كل شهر، هذا مع العلم بأن في تلك الفترة كان صاع القمح يقدر بـــ 5 إلى 10 فرنكات، بخلاف هذا الوقت الذي ارتفع فيه القمح إلى 80,90 فرنكا، وذلك أثناء فصل الشتاء المنصرم لسنة 1838م، ولكن نظرا لحالة الأمن واحترام الملكية التي سادت البايلك أصبح من اللازم أن تعود أسعار الغلال الضرورية إلى سابق عهد لها.

---

* قصر الطين: مكان بأراضي قبيلة ريغة يبعد حوالي 8 كلم جنوب سطيف على مقربة من البحيرة المعروفة بقرعة أو سبخة قصر الطين.

1 - المرجع السابق. ص 15.

أما القيمة الإجمالية لما يستوجب على البايلك من مستلزمات الضرائب اتجاه داي الجزائر، والتي ذكرنا سلفا أنها تقــدم مرتين في السنة، فكانت تقدر بقيمة 340,000 ريال مع العلم بأن الريال الواحد يقدر ب 0,93 فرنك.

بالإضافة إلى هذا المبلغ من المغارم، كان الباي يقدم إلى داي الجزائر ما يلي من العوائد:

- 1500 بقرة، منها 100 بقرة تقدم مقابل حق المرور عبر باب الحديد، ورغم قدم هذه العادة فإنها لم تهمل قط.
- 600 خروف.
- 17 بين فرس وحصان أصيل، تكون من نصيب الداي والموظفين الكبار بالجزائر.
- 100 بغل منها 40 من النوع الممتاز، بينما 60 الباقية من النوع المستخدم للنقل.
- 70 برنوسا من النوع التونسي الرفيع.
- 50 غطاء من نوع الحايك التونسي الرفيع.
- 40 دزينة من الطاقيات (قلنسوات) الحمراء اللون.
- 32 سبحة من العنبر والمرجان.
- 14 أوقية من عطر الورود.
- 03 أوقيات من عطر الياسمين.
- 16 كيسا معدا لحفظ الساعات، موشى ومطرز بالذهب.
- 30 قطعة من جلد النمر والأسد.
- من 8 إلى 10 أسود أو نمور.
- 700 قفة من التمور، وكل قفة تتسع لعرجون من التمر يتراوح وزنه ما بين 1 كلغ إلى 1,50 كلغ.
- 150 سلة من الزيتون الأخضر.
- 02 حوملتا بغال من القماش المستعمل في تبطين السروج وغيرها.
- 20 حمولة من الزبدة.
- 20 حمولة من الكسكس.

وكان الخليفة بعد أداء هذه العوائد والضرائب (الدنوش الصغرى) يعود من الجزائر محملا بقفطان الخلعة كهدية شرف من الداي إلى الباي وهو بمثابة دليل رضا الداي على تصرفات الباي وهداياه له.

وقد جرت العادة على أن إهمال هذه الهدية الشرفية قفطان الخلعة يفسر على أنه علامة من عدم رضا الداي لما قدمه له الباي، كما يعتبر توقعا صادقا بقرب عزل الباي وتنحيته من منصبه.

وما دام الأمر كذلك فإن عودة الخليفة بالقفطان كان يعتبر مناسبة فرح وابتهاج يهلل لها قصر الباي، ويبعث أثناءها الباي إلى الجزائر بهدية قيمتها *1000* سلطاني ذهبي كاعتراف بجميل الداي عليه.

ومما يلاحظ أن كل هذه الهدايا المتطلبات المالية من ضرائب وغيرها التي كان بايلك الشرق (قسنطينة) ملزم بتقديمها، يضاف إليها مساهمة تقدر ب *1400* قيسمة من القمح، و*7000* صاع من الشعير، كان يبعث بها البايلك إلى الجزائر عن طريق عنابة، وذلك بعد أن أصبحت العادة الجارية بها منذ عهد **انقليز باي**(1).

ومن الظواهر التي تستدعي النظر أن ميزانية البايات في مقاطعات قسنطينة ووهران كانت تفوق ميزانية العاصمة التي يديرها الداي نفسه، فلقد كانت ميزانية بايلك قسنطينة، تتضمن مداخيل الضرائب والأراضي التي بلغت *5076705* فرنك، في حين أن ميزانية البلاد كلها *1600,000* فرنك، وهذا ما عثر عليه أفراد من الجيش الفرنسي الوافدين مع الماريشال **"دي بورمون "** في الملفات التابعة إلى خوجة الخيل وكحراس العشور(2).

وحسب ما أورده قنصل الولايات المتحدة **"وليام شالر"** فإن الضرائب التي سجلت في مقاطعات البايات والقواد السبعة في دار السلطان لا تمثل حسب ما ورد في مداخيل البلاد سنة *1822*م إلا *140,000* قرشال أي حوالي *150* مليون فرنك أي بنسبة *20%* من

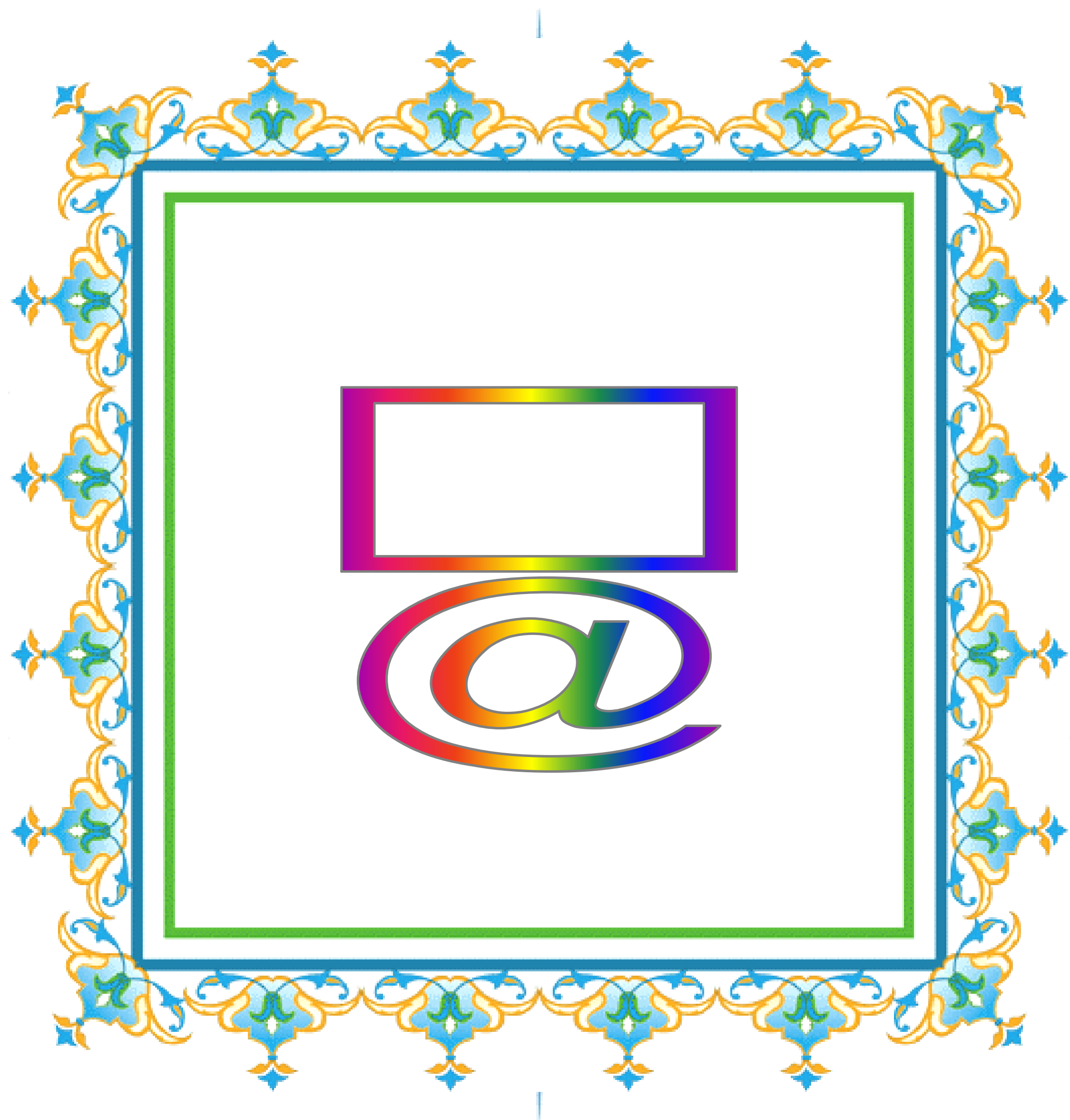
---

(1) – المرجع السابق. ص ص 16-17.

(2) - إيف لاكوست وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر: تعريب: رابح اسطنبولي وآخرون. المطبوعات الجامعية، ص 138.

المجموع العام من الميزانية، وهذه الظاهرة تدل على مدى ما للبايات من مداخيل، يرجع إلى الدولة من أموال نتيجة الدخل العام ونسبة الإنتاج في البلاد[1].

(1) – شيلر. وليام: مذكرات وليام شيلر قنصل أمريكا في الجزائر 1824 م. ص 252.



الكتاب والكتابة في قسنطينة خلال العهد العثماني

الكتاب والكتابة في قسنطينة خلال العهد العثماني:

لقد بلغ الجانب الثقافي في قسنطينة خلال العهد العثماني شأوا كبيرا وتطورا ملحوظا ساهم فيه الأتراك والأهالي على حد السواء، حيث بلغ عدد المساجد كما ذكر الورتلاني في رحلته خلال القرن الثاني عشر خمسة مساجد جمعة، أما الصغيرة فقد بلغ عددها (70) مسجدا.

ومن مميزات هذا العصر أيضا انتشار الطرق الصوفية وكثرة المباني المتخصصة لها، ومن الزوايا والأضرحة الموجودة في مدينة قسنطينة ونواحيها قائمة طويلة، بلغت حسب بعض الإحصاءات ست عشرة زاوية، فهناك زوايا وخلوات **سيدي الكتاني**، **سيدي المناطقي**، **سيدي عبد المؤمن**، **سيدي المسيد**، **سيدي مخلوف**، **سيدي ميمون**، **سيدي عفان**، **سيدي راشد وسيدي التلمساني**، كما كانت للعائلات الكبيرة بالمدينة زواياها الخاصة مثل زاوية أولاد الفكون، زاوية ابن نعمون، زاوية أولاد جلول وكانت هناك زوايا خاصة بالأتراك والكراغلة مثل زاوية **رضوان خوجة** الذي كان قائد الدار، والذي بنى

الزاوية لنفسه، ودفن فيها بعد وفاته سنة *1220* هـ، وفي نواحي قسنطينة اشتهرت زاوية خنقة سيدي ناجي، وزاوية سي بو مسعود وزاوية بني مقران، وزاوية حذقة سيدي محمد بن يحي المتوفي حوالي سنة *1091* هـ الواقعة عند أولاد عبد النور، وزاوية مولاي الشقفة بين جيجل والقل[1].

و لم تكن قسنطينة أقل عناية بالمدارس فقد كانت مدارسها الابتدائية كثيرة على العهد الحفصي، وظلت كذلك في العهد العثماني، رغم أن تطور إنشاء المدارس لا تؤكده الإحصاءات، لكن المؤكد هو أن المواطنين وبعض البايات قد أسسوا المدارس الابتدائية والثانوية، ورغم أن **الورتلاني** في رحلته انتقد تدهور أحوال الناس بتدهور الأوقاف وأن ولاة قسنطينة لم يشغلوا ببناء المدارس، فإن المعروف تاريخيا والمشهود به أن **صالح باي** أسس مدرسة **سيدي الأخضر** الملاصقة للمسجد بهذا الاسم، كما شيد مدرسة **سيدي الكتاني** سنة *1190* هـ-*1776*م لتعليم مختلف الفنون، وجعل لمدرسة سيدي الكتاني نظاما خاصا محكما وما تزال هذه المدرسة قائمة إلى وقتنا الحاضر، كما شيد مدارس أخرى في عنابة والقل وجيجل، وكان يلحق بالمدرسة جامعا وكتابا ودار كتب[2].

و لم تكن هذه هي فقط المدارس الموجودة في قسنطينة، فقد انتشرت بعد ذلك، وقد كان عدد المدارس الابتدائية فيها عند دخول الفرنسيين حوالي تسعين (*90*) مدرسة وهو العدد الذي جعل بعض الباحثين يحكمون بأنه يدل على أن كل طفل ذكر بين السادسة والعاشرة كان له مكان في المدرسة، أما التعليم الثانوي والعالي فقد وجد الفرنسيون له في قسنطينة سبع (*07*) مدارس، وقد كانت قسنطينة من أكثر المدن عناية بالمؤسسات العلمية وذلك لاستقرارها السياسي نسبيا ولقربيتها تونس.

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص ص 264- 265.

(2) - مسعود العيد: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني. مجلة سيرتا. العدد 3. مطبعة البعث قسنطينة. 1400 هـ/ 1980م. ص 65.

ولقد كان علماء قسنطينة يوزعون الدراسة على فصلين فصل الشتاء وفصل الربيع، ويعزو **الورتلاني** سبب ذلك إلى قلة المدارس فيها من ناحية وإلى قلة الأوقاف المحبسة على المدارس الموجودة من ناحية أخرى[1].

لقد كانت قسنطينة غداة الاحتلال تحتوي على مكتبات قيمة، وذلك بشهادة المستعمر نفسه، إذ تشهد عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المحفوظات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها وجمالها والعناية بها، فقد اعترف البارون **ديسلان** وقد كتب تقريرا من المكتبات بقسنطينة عقب احتلالها مباشرة، وكذلك **أدريان بيرو بروجر** الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة وتلمسان ومعسكر، وجمع المخطوطات من هذه المدن، وفد ذكر أيضا **شارل فيرو** الذي كتب عن المؤسسات الدينية في قسنطينة وعن العائلات الكبيرة بها، إن بعض هذه المؤسسات والعائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة وأن في هذه المخطوطات نوادر تعتبر فذة في موضوعها، وضرب على ذلك مثالا بمكتبة شيخ الإسلام بقسنطينة **عائلة الفكون** التي قال عنها أنها كانت غنية لا بالكتب الخاصة بالجزائر فقط بل حتى بالكتب المتعلقة بالبلاد الإسلامية المجاورة حيث بلغت حوالي *4000* مجلد، وكان يريد بذلك أن يبرهن على وجود الكتب بالجزائر، وتذوق الفنون والعلوم من قبل أهلها رغم عدم عناية العثمانيين بالثقافة[2].

ولقد اشتهرت قسنطينة ببعض النساخ والخطاطين حتى قارنهم بعض الكتاب بابن مقلة في حسن الخط، ومن هؤلاء **أبو عبد الله بن العطار** الذي كان من أسرة شهيرة تولت الوظائف الرسمية في العهد العثماني، وقد عرف ابن العطار بجودة الخط، وربما اشتهر به على ابن مقلة وكان يقصده العام والخاص في الوثائق والعقود[3].

---

(1) - الورتلاني حسن: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. تحقيق ابن أبي الشنب. الجزائر 1908. ص611.

(2) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. ص 287.

(3) - ذكر "ابن العطار" في كتاب منشور الهداية لصاحبه شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون: تقديم وتعليق وتحقيق د/سعد الله أبو القاسم. الطبعة الأولى. 1987م. دار الغرب الإسلامي بيروت. لبنان ص ص 38- 39.

وكذلك اشتهر إبراهيم الحركاتي، فقد كان مدرسا بالمهنة، ولكنه اشتهر أيضا بالنساخة وحسن الخط حتى أصبح مشهودا له بذلك، واشتهر **محمد الزجاجي** بالنساخة حتى أصبح له فيها مهارة وطاقة كبيرة، وذكر **الورتلاني** أن أحمد التليلي كان بديع الخط سريع اليد وأنه كان ينسخ كراسا من القالب الكبير أثناء السفر، أما يوم الإقامة فكان ينسخ أكثر من ذلك.

أخبرت التقارير الفرنسية المكتوبة غداة الاحتلال أن أهم المكتبات العامة في قسنطينة كانت في المساجد والزوايا وأن أشهر المكتبات الخاصة هي مكتبة **الشيخ الفكون** ومكتبة **باش تارزي**، ومكتبة **ابن عيسى**، وكان **بيرو بروجر** قد رافق الحملة على قسنطينة وأخذ يجمع المخطوطات من المساجد وغيرها من أيدي الجنود، بل حتى من الشوارع وقد جمع حسب التقارير ما يزيد عن ثمانمائة مخطوط وعاد بها إلى مدينة الجزائر، ولكن قبل أن تصل إلى هناك ضاع منها الكثير في الطريق، ومن بين هذه المخطوطات مجموعة من الكتب للرياضيين الإغريق ومجموعة أخرى من علوم الفلسفة والطب وغيرها، استفاد منها الفرنسيون فائدة عظيمة.

بالإضافة إلى مكتبة **ابن الفكون** التي تحدث" عنها **"ديسلان"** وقال أنها تضم أكثر من *4000* مجلدا، فقد تحدث أيضا عن مكتبة **باش تارزي**، فقال أنها أقل أهمية من مكتبة الفكون ولكنها كانت تضم أكثر من خمسمائة مخطوط، أغلبها كما قال في الفقه والدين وذكروا أنه وجد فيها كتابين نادرين هما **معارف ابن قتيبة، شرح ابن بناتة** على ابن زيدون[1].

وسنحاول في هذا الفصل عرض أهم وأشهر الكتّاب القسنطينيين خلال العهد العثماني بالإضافة إلى التطرق إلى إنتاجهم الأدبي والتعريف به وذكر نماذج من هذا الإنتاج كلما توفر لدينا ذلك.

وقد رأيت أن يكون العالم الجليل "عبد الكريم بن الفكون" على رأس قائمة الكتاب في العهد العثماني، وذلك لتقدمه وغنى منتوجه الأدبي بفن النثر والكتابات القيمة على أننا

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. ص 309.

نجد اسمه مرة أخرى ضمن قائمة الشعراء، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تنوع إنتاجه الأدبي بين الشعر والنثر وبالتالي تمكنه من الأخذ بناصية الأدب.

عبد الكريم بن الفكون:

من هو ؟

هو العلامة أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي القسنطينـــي[1]، وقيل الطرابلسي[2]، ينتسب إلى عائلة الفكون وهي عائلة علمية شهيرة بقسنطينة، يرجع أصلها إلى فقونة قرية في جبل الأوراس، كما ذكر ذلك عالم قسنطينة ومفتيها الشيخ عبد القادر الراشدي في كتابه المخطوط عقد اللآليء المستضيئة لنفي ظلام

---

(1) - ذكر النسب في كتاب الصيد سليمان نفح الأزهار، كذلك كتاب شيخ السلفية لأبي القاسم سعد الله.

(2) - ذكر النسب في كتاب : معجم المشاهير المغاربة.

التلبيس[1]، ولد شيخنا سنة 988 هـــ وهي السنة التي توفي فيها جده عبد الكريم الفكون فسمي عليه[2]، وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل توفي سنة 1073 هـــ.

نشأ في أسرة محترمة كانت مؤيدة للعثمانيين وذهب جده في وفد سياسي إلى العاصمة وحدث ما أجبره على الفرار[3] مع زميله الشيخ عبد اللطيف المسبح إلى زواوة ثم أعيد إلى العاصمة وسجن، ثم رضيت عليه الدولة وأعادته إلى قسنطينة مكرما وأصبحت عائلة الفكون منذئذ في خدمة الدين والدولة[4].

وعائلة ابن الفكون من البيوتات العلمية العديدة في مدينة قسنطينة، كعائلة ابن باديس وعائلة ابن نعمون وعائلة ابن الوزان وعائلة ابن الخطيب، عائلة ابن عبد الجليل، إلى غير ذلك من العائلات، وعائلة ابن الفكون قد لعبت أدوارا هامة في مدينة قسنطينة[5]. وقد كانت لها امتيازات اقتصادية ومعنوية لا حصر لها فقد كانت من أغنى الأسر في قسنطينة تملك العقارات والأراضي وتعيش عيشة راضية هنيئة، وكانت لها زاوية خاصة تطعم منها الفقراء وتنشر العلم، وتستقبل الضيوف من الجزائر وخارجها وتبث منها آثارها وتأثيرها[6].

تعلم الشيخ عبد الكريم على والده في زاوية العائلة وتربى على الثروة والجاه وذكرت المصادر من شيوخه في قسنطينة: محمد التواتي المغربي الذي أخذ عنه الصرف والنحو وليس المقصود به التواتي الجزائري الذي كان في بسكرة والخنقة، وقد أثر فيه التواتي أكثر من غيره

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار: الطبعة الأولى. الجزائر 1994 ص 21.

(2) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. ش وت- ت ج2 ص527.

(3) - أبو عمران الشيخ: معجم المشاهير المغاربة. تقرير سعيدوني ناصر الدين. 1995م. ص 425.

(4) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2.ص 527.

(5) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 21.

(6) - سعد الله أبو القاسم : تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص527.

وخاصة في فكره النقدي الواضح وثورته على الغموض والابتداع والانحراف، ودعوته إلى العقيدة السلفية الصافية[1].

وبعد وفاة عبد الكريم الفكون الجد تولى ابنه محمد (والد المترجم له) جميع وظائف والده، من إمامة وخطابة بالجامع الكبير في قسنطينة، وكان محمد الفكون كما يقول عنه ابنه الفقيه فقيها ومتصوفا أيضا، يقوم الليل ويدرس العلم، و لم نعرف أن العثمانيين الذين جددوا له ما كان لوالده من وظائف دينية قد منحوه لقب شيخ الإسلام، فقد توفي محمد الفكون أثناء عودته من الحج في مكان بين الحجاز ومصر سنة 1045 هـ، ولكن عائلة الفكون قد بلغت مجدها الديني والدنيوي في عهد **عبد الكريم الفكون الحفيد،** فقد تولى وظائف والده مباشرة بعد وفاته كما أسندت إليه إمارة ركب الحج، ذلك أن الوثائق تتحدث عن تجديد تسميته أميرا لركب الحج سنة 1048 هـ من قبل **علي باشا،** ومما جاء في إحدى الوثائق أنه "الشيخ العالم القدوة النقي الناسك الأبر المؤلف البليغ سيدي عبد الكريم الفكون" وأنه قد أذن له بضرب الطبل والاتجاه بالمسلمين، كما كان رفاق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأن أحدا لا يمانعه ولا يعارضه ولا يدافعه لأنه أحق بإمارة ركب الحج وهو جدير بالقيام بها حق القيام، وقد أرسلت هذه الوثيقة وهي أمر من الباشا إلى "القواد والعمال والخاص والعام ببلد قسنطينة، وبذلك كان لعائلة الفكون امتيازات يمكن تلخيصها فيما يلي: قيادة بعثة الحج مع الحق الكامل في اختيار أعضاء القافلة والاستفادة من هذه المهمة ماديا بقدر الإمكان، وإدارة جميع أوقاف الجامع الكبير الهائلة دون مراقبة ولا محاسبة وإعفاء جميع الأوقاف التابعة للعائلة وجميع أملاكها في المدينة والريف من الضرائب ومن كل الغرامات، والإعفاء أيضا من الغرامات والسخرة وحق دخول المدينة والخروج منها وحق توفير الطعام والسكن للجنود والموظفين العثمانيين، كما تستفيد عائلة الفكون من هذه الإجراءات لخدامها وكذلك رعاتها ومساعديها والمتصلين بها ونيل الهدايا والعطايا العقارية وغيرها والاستفادة من حق العشر من الزرابي والخشب المحمول من نواحي أوراس إلى قسنطينة

(1) - معجم المشاهير المغاربة.ص ص 425- 426.

والاستفادة من حق المكس على أسعار الخضر والفواكه، ومن جهة أخرى فإن جميع من يلتجأ إلى العائلة سواء من المترل أو غيره ولو خارج المدينة مصون لا يتعرض لأي عقوبة ولو ارتكب جريمة، وكل من مد شيخ الإسلام يده لحمايته لا يجوز التعرض له، كما أن لشيخ الإسلام الكلمة العليا في تطبيق الشريعة الإسلامية، والسهر عليها، وقد كان عبد الكريم الفكون في السادسة والخمسين عندما تولى تلك الوظائف[1].

فعبد الكريم الفكون كان رجلا كما يذكر الحنفاوي نقلا عن **رحلة العياشي** أنه "كان رضي الله عنه في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرسوم بعدما كان إماما يقتدي به فيها، وله فيها تآليف كثيرة شهد له فيها بالتقدم أهل عصره وألقى الله في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب والتردد إلى الحرمين الشريفين، مع كبر السن وكان يقول إذا ذكر له شيء من هذه العلوم قرأناها لله وتركناها لله، توفي بقسنطينة بالطاعون[2].

كما عرّفه العلامة الشيخ محمد بن محمد مخلوف بقوله الإمام العلامة العمدة القدوة الفهامة الجامع بين علمي الظاهر والباطن[3].

ويقول عنه المقري، عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء الأكابر ووارث المجد كابر عن كابرا المؤلف العلامة سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون[4].

للعلامة ابن الفكون عدة تآليف كلها مخطوطة منها :

- شرح على أرجوزة الماكودي في فن التصريف، ألفه سنة *1048* هـ.
- شرح على شواهد الشريف على الأجرومية سماه "فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن علي".

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي.ج2.ص ص 528-529.

(2) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف طبعة مؤسسة الرسالة. تونس 1982 – ص 166.

(3) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 21.

(4) - المقري شهاب الدين بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مصر 1949.ج2. ص 380.

- شرح جمل المجرودي ومخارج الحروف من الشاطبية.
- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية.
- شرح على مختصر الإمام الأخضري الجزائري في فقه المكالمة.
- ديوان شعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مرتب على الحروف الأبجدية.
- محدد السنان في نحور إخوان الدخان(1).
- وله تقييد على مسألة وقف عنوانه : حوادث فقراء الوقت، قال المترجمون له: لعله هو منشور الهداية.
- وله سريان الردة في القراءات، وفتح الهادي في النحو.

وله مجموعة خطب وأشعار ورسائل كثيرة، ووعد بأنه سيسجل تقييدا على كرامات الشيخ عمر الوزان[2].

ويذكر العياشي في رحلته أن: "مروياته مستوفاة في فهرسة أبي مهدي عيسى الثعالبي"[3].

ورغم الأهمية الكبيرة التي اكتسبتها جميع مؤلفات ابن الفكون، إلا أن كتابه **"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"** -وهو العنوان الكامل للكتاب- قد احتل مكانة هامة لدى الدارسين والباحثين في أعماق الأدب الجزائري، أمثال الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي قام بتحقيق الكتاب، لذا رأيت أن أتطرق إليه بشيء من التفصيل للتعريف بمحتواه وظروف وأسباب تأليفه.

ضمن الشيخ عبد الكريم الفكون كتابه منشور الهداية مجموعة من التراجم بلغت 75 ترجمة لعلماء قسنطينة وناحيتها في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة، وسجلها في شكل مذكرات وتقاييد على مراحل مما جعلها قد تقصر أو تطول، ولا تخلو من التكرار

---

(1) - الصيد سليمان: نفع الأزهار.ص 23.

(2) - معجم المشاهير المغاربة.ص 425.

(3) - نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر الطبعة الثانية بيروت 1400هـ-1800 م. ص 254.

والاستطراد وتداخل التواريخ، فقلما يذكر تاريخ الولادة، وقد يترك تاريخ الوفاة بياضا، إذا لم يتوفر لديه، وقد انتهج فيها طريقة خاصة، تتضمن أخبارا لطبقة وأراء شخصية صريحة تسببت له بعد ذلك في مضايقات ومشاحنات، وهذا ما أشار إليه في قوله: "رمتني من أجله العيون، وانحقد عليّ بغيضي القلوب وأكثرت الشؤون"[1].

كما يعمد إلى تسجيل انطباعاته صراحة وبالتلميح ويذكر انطباعات غيره، إذا كان لا يعرفهم ويركز خاصة على أحوال الأشخاص فيما كانوا عليه في نظره من الصلاح أو الطلاح، ويتحدث عن نشاطهم الاجتماعي وعلاقتهم مع بعضهم ومع الحكام، ومع العامة وعن عقائدهم وسلوكهم في الحياة ونشاطهم العلمي والصوفي وقد يذكر لهم ما حدث لهم من مغامرات.

ويهدف ابن الفكون من خلال كتابه منشور الهداية أساسا لهدف إصلاحي فهو يتحسر على مجتمعه الذي انتشر فيه الجهل والفساد والزندقة والنصب والاحتيال، وتلاشت فيه القيم والمبادئ ويصف أهل زمانه بقوله: "لما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تنكسر، وسحائب الجهل قد أظلته، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في مترلة يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأس لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة"[2].

وفي مكان آخر يذكر عصره الذي يتميز بفساد الخاصة ورقاد العامة بقوله :"وزماننا الذي فاض فيه عباب الجهل والدعوى وطلقت كواكب البدع والأهواء فلا ترى إلا مدعيا في العلم أعلى منصته، ومرتقبا في شامخ التربية، أرفع فتنة وجعلوا الطريقتين **العلم والتصوف** شباكا لتحصيل الدنيا المنصوبة وحبالات لجمعها بأوتاد مضروبة، وما نظروا على

(1) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. تقديم وتحقيق وتعليق سعد الله أبو القاسم. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان الطبعة الأولى. 1987. ص 31.

(2) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية. تحقيق سعد الله أبو القاسم. ص 31-32.

عاقبة الأمر عقابه والوقوف بين يدي العالم بالخفيات ودقة حسابه، ونسأل الله العافية وصلح حال الأمة"[1].

وهذا ما جعله يتصدى لما كان يسميه (الطائفة البدعية)، ويبدي غيرته على الدين والأخلاق، فاعتبر ما كتبه واجبا، إذ يقول "هذا الجهاد هو الذي أحد من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء... فعظم الباحث على النصح بهذا التقييد"[2].

وقد كان في معظم ما كتبه مستنكرا للبدع والشعوذة والخرافات، وجاءت دعوة سلفية ضد الذين حادوا عن سبيل الشرع الصحيح ومسلك الجماعة، وقد أفصح عن هدفه هذا بقوله: "والبر بتأليفه أردت وإرشاد الأمة ونصحها قصدته..."[3].

وقد اشتمل منشور الهداية على أربعة أصناف من التراجم لكل صنف فصل خاص به، إذ خصص الفصل الأول من مؤلفه للعلماء والصلحاء المقتدى بهم الذين التقى بهم أو سمع عنهم وعددهم أربعة وعشرون، أشهرهم **عمر الوزان، يحي الأوراسي، محمد العطار أحمد الغربي، محمد الكماد، علي بن يحي الياوراوي، أحمد بن تكفة محمد بن حسن، عبد اللطيف المسبح، بركات المسبح، علي المرواني علي الغربي، أبو القاسم العطار، بركات بن سعيد، محمد التواتي، سليمان القشي، النقاوسي، عبد العزيز النفاتي، محمد الفاسي،** مضيفا إليهم آل الفكون المتقدمين وهم **يحي وقاسم وجده عبد الكريم ووالده محمد.**

أما الفصل الثاني فقد أفرده لمن تولوا المنصب الشرعي وهم غير أهل له فكانوا مدعين العلم أو متشبهين بالعلماء باستثناء القليل منهم الذين تتوفر فيهم شروط تولي الخطابة والتدريس حسب رأي الفكون، وعددهم اثنان وعشرون أشهرهم: **محمد بن القاسم**

---

(1) - المرجع نفسه. ص 32.

(2) - المرجع نفسه. ص 33.

(3) - المرجع نفسه. ص 33.

الشريف، يحي بن باديس، احمد الجزيري، محمد السنوسي المغربي، محمد بن نعمون، عبد اللطيف بن سعيد.

أما الفصل الثالث فهو تراجم لمن ادعى الولاية والذين وصفهم الفكون بالدجاجلة الكذابين والمندشقة المبتدعة الضالين المضلين وهم خمسة عشر، اشتهر منهم: **"سيدي قاسمن بن أم هانئ"، "أحمد بوعكاز"، "الحاج الصحراوي"، "الشيخ طراد"، "سيدي الجليس"، "عبد المالك السناني"، "العابد الشابي"**، ألحق بهم **"محمد السادي البوني"** رغم علمه وورعه وقد أخذ عليه تصرفات بدرت منه ونسبت إليه[1].

بالإضافة إلى هذه الفصول الثلاثة هناك فصل ختامي ختم به ابن الفكون كتابه منشور الهداية ذكر فيه بعض الأصحاب والأحباب الذين وصفهم **بإخوان العصر** ويقصد بذلك الذين عايشهم وعاصرهم وعددهم أحد عشر وأغلبهم خارج قسنطينة مثل الشيخ **بلغيت القشاش، أبي العباس حميدة بن باديس، أحمد المقري، محمد بن ناجي، محمد بن الموهوب، محمد وارث الهاروني، على بن عثمان الزواوي وأحمد بن الحاجة الميلي.**

يضم منشور الهداية لابن الفكون معلومات مهمة تتصل بالحياة الثقافية والاجتماعية وبالحياة السياسية، والعلاقات العامة في ذلك العصر الذي كان يمتد ما بين القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة، السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نستطيع التعرف من خلاله على الواقع الثقافي والحياة الدينية وطرق التدريس والإجازة، وأخبار الكتاتيب والزوايا ومراسلات العلماء ونشاطهم العلمي وعلاقة هؤلاء بالحاكمين العثمانيين وما كانت تمارسه السلطة من تضمين عليهم، كما يعكس الكاتب نفوذ تلك العائلات التي توارثت العلم واشتهرت بالتصوف، وتأثيرها على واقع الثقافة، أما الحياة الاجتماعية والاقتصادية فهي تبرز من خلال الإشارات العديدة التي تضمنها كتاب منشور الهداية مثل إشارته إلى موسم

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 356.

الجفاف والقحط والمجاعة (*1602 – 1611- 1647*) وفترات انتشار الأوبئة (*1602 – 1622 – 1634 – 1644 – 1680*) وذكره لأسماء القبائل والأعراش والعائلات (**الغربي ابن باديس، العطار، الفكون، الموهوب، ابن نعمون، الحركاتي، المسبح**) بالإضافة إلى المناصب المخزنية وطبيعة السلطة المحلية وعلاقتها بالسكان واتصالها بالعلماء، أما عن الحياة السياسية فتظهر لنا من خلال منشور الهداية تلك التمردات العديدة وما ارتبط بها من عمليات قمع ومتابعات للسكان فقد وردت إشارات في منشور الهداية على تمرد **يحي الشاوي** بعد سنة *988*هـ/ *1545* م وخالد بن نصر شرق قسنطينة قبل (*1045* هـ) ومحمد بن الأحسن النقاوسي وأحمد السوسي المغربي وإلى مهاجمة سكان قسنطينة للحامية التركية *1975* هـ / *1567* م.

ورغم كل هذه الامتيازات التي يتميز بها كتاب منشور الهداية لمؤلفه ابن الفكون وما يحتويه من أهمية تاريخية وأدبية فقد ظل مخطوطا، رغم أنه ذكر من قبل كل من فايسات *E.Veyssette* وشاربينو *Cherbonneau* كما نقل منه أبو القاسم الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف إلى أن قام بتحقيقه والتعليق عليه والتقديم له الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله اعتمادا على مخطوطة نادرة للشيخ **أمير** مما سهل الانتفاع به، ومكن الباحثين من الرجوع إليه وبالتالي فهو مرآة نرى منها جانبا من حياة أجدادنا في عصر ساد فيه الغموض والفوضى.

أما عن ثاني أهم مؤلفات ابن الفكون فهو كتابه الذي سماه " **محدد السنان في نحور إخوان الدخان**" "وهو في عدة كراريس مشتمل على أجوبة عدة من الأئمة"(1).

فلما انتشرت ظاهرة الدخان في البلاد وتفشت في عادات العباد، رأى ابن الفكون أن يوضح للورى سر هذا الدخان وخطورته في الدنيا والآخرة، فهو يقول عن الأسباب والدواعي التي وضع لأجلها هذا الكتاب: "فقد دهمت بلية وقعت بالبلاد وسرى سمها في

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 167.

الحاضر والبادي وانتحلت مذهبها الأقصار وتوارثها عن سفلتها الأشرار وتدركهم لارتكابها أكابر الأغمار... "[1].

ومن الأجوبة التي أوردها ابن الفكون وهي لبعض العلماء الصالحين الذي أفتوا في قضية تحريم وتحليل الدخان العالم المالكي من القاهرة الأجهوري حيث يقول أن الدخان ليس مسكرا قطعا لأن المسكر ما غيب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب.

لكن ابن الفكون يرى أن الأجهوري قد أخطأ بحكمه هذا فقال : "ولعمري إن ثبت عنه ذلك فلقد أضل بفعله أكثر منه قوله والعوام هوام ولا تفقه حلالا من حرام... ثم ما اعتمده دليلا لا ينهض في صحة مدعاه..."[2].

كما أورد ابن الفكون رأي كل من الشيخ خالد الزواوي - مفتي مكة - وشيخ المالكية بمصر الشيخ إبراهيم اللقاني اللذان حكما بتحريم شرب الدخان.

و لم يكتف بذلك بل ذكر بعض المقطوعات لأصحابها التي جاء فيها تحريم شرب الدخان نظما من ذلك ما قاله فقهاء فاس المحروسة وما نصه[3]:

يا أيــها النــاس اسمــعوا	مقـــالتي واتبــــعوا
أحســنها تنــتفعــوا	وتشـــرفوا وترفعـــوا
إن كنــتم تبــغون يوم اللقا	فلـــتتقوا مـــولاكـــم

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 27.

(2)- المرجع نفسه. ص 28.

(3) – المرجع السابق. ص ص 30 31.

ولا تمـــــصوا التبـــــغا	من مصـــــها فليـــــــرض
حـــتى تكـــــون حــرضا	وهي من الملاهي وأقبح الدواهي
تلــــــهي عـــن الصــــلاة	والــــذكر والصــــلات
لأنهـــــا كـــــالخمــــر	أصـــغ أخـــي لــــــذكــر
لأن مـــــا يفـــــــتر	كمــــثل مــا يســــكر
كـــــذاك في الأثــــــار	عن النــــبي المختــــــتار
ولا يمــــــص التبـــــغا	إلا الجبـــــان في الوغـــــى
نظـــــــمها محــــــمد	ابن الفقــــــير أحمــــــد

ومن الذين ذكرهم ابن الفكون في كتابه وقد أجاب في مسألة الدخان نظما وليس نثرا أيضا الشيخ الفقيه أبو محمد بن سعيد الدين لما سأله العالم الفقيه مفتي الجزائر أبو ربيع سليمان الأوراري، حيث كان سؤال أبي ربيع نظما جاء فيه(1).

أيا من بان في رتـــب المعالي	رئيـــسا حائرا غرر الكمال
ابن لي مقصدا قد حرت فيه	وأوضح لي معالم من السؤال
رأيت الناس قد جنحوا لبلوى	وهي والله مفـــسدة الرجال
دخانا يشربون لكـــل وقت	وعم الخـــافقين على التوال
أفي المكـــروه يدخل شاربوه	جهـــارا وحـــراما أو حلال
فقل بالحق إذ من شاء يؤمن	أفتـــيت أو يكـــفر بحـــال

فأجاب الشيخ أبو محمد بن سعد الدين نظما على الوزن والقافية التي سئل بها(2):

أحمـــد ربنـــا مـــولى الموالي	ومـــولينا بألطاف جزال
وأما بعد يـــا أمل الســـؤال	هداك الله في هذا المقـــال
سألت عن الدخان بحس نظم	بديع في اللطـــافة كاللآل

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 32.
(2) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص33.

تيـــقن ليــــس فيه غـــير ضر	وما فيه سوى إتلاف مال
وإن منعت تضـــيعا لنـــفس	ومسخ للنســـاء والرجال
فما في ضمـــنه هـــلاك مربي	وبال في وبـــال في وبال
كـــراهة ريحـــة لاشـــك فيه	شراب عاقه طعم الأهال
حـــرام ليس فيه شوب شك	محال كـــره بيـــن الحلال

وقد وجه الشيخ ابن الفكون في كتابه هذا انتقادا لاذعا ومرا لسكان الحضر القاطنين بقسنطينة، وفي الأخير ختم كتابه بالصلاة على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، ووافق الفراغ منه على يد مصنفه وكاتبه عبد الكريم بن محمد بن الفكون يوم الجمعة أواسط رجب من سنة *1025* هـــ.

عمر الكماد الأنصاري القسنطيني المعروف بالوزان[1]:

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 81.

- أيضا نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر. ص125.
- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. ص 380.

قال المنجور في **فهرسته** هو الفقيه العالم الكبير المتضمن المحقق الراسخ الصالح أبو حفص، كان آية يبهر العقول في تحقيق فنون المنقول والمعقول، من عباد الله الصالحين، رحل إليه شيخنا أبو زكرياء الزواوي وسمعه يقرر الفقه ويقرئ الفنون، فكان إذ ذكره يعجب ويعجب، ويرجحه على كل علماء عصره.

أخذ عنه شيخنا **اليسيتني** الأصلين والبيان وغيرهما، وقرأ عليه **معالم الفخر** قراءة بحث وتحقيق.

توفي بقرب الستين وتسع مائة (*960*) له تآليف منها: الرد على المرابط عرفة القيرواني وصحبه، وهو كتاب جليل ختمه بالتصوف ومد فيه النفس سماه البضاعة المزجاة في غاية التحقيق والإيضاح لتلك الأغراض ومنها " فتاوى في الفقه والكلام وغيرهما " أبدع فيها ما يشاء.

أخذ عنه جماعة كعبد الكريم الفكون، أبي الطيب البسكري، يحي بن سليمان. وقد أعطت أسرة الكماد عددا من العلماء للجزائر.

قال عنه ابن الفكون في كتابه منشور الهداية "**شيخ الزمان وياقوتة العصر والآوان، العالم العارف**"[1].

وأخبر عنه أنه كان لا يجاري في علوم الفقه والأصول والنحو والحديث، وأنه كانت له اليد الطولى في علم التصوف، وأنه كانت تشد إليه الرحال لطلب العلم، ويفتي بأقواله، وأفعاله.

أبو محمد عبد اللطيف المسبح القسنطيني[2]:

---

(1) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية ص 35.

أنظر (2) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية ص 46.

- الحفناوي محمد: تعريف الخلف... ص 427.
- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر... ص 98.

الفقيه الفرضي أبو محمد عبد اللطيف المسبح المردامي نسبا، كان فقيها بقسنطينة مرجوعا إليه في وثائق أهلها، وكان الحساب أغلب عليه من غيره، مدرسا في الفقه، صاحب تفنن فيما يحتاج إليه من الوثائق وله شرح على مختصر الشيخ **صالح سيدي عبد الرحمن بن صغير الأخضري** قرأه الشيخ **عبد الكريم الفكون** وقال عنه **:**" طالعناه زمن المشيبة فرأينا عماده على جمع الكتب والنقل منها فحسب لا يلم بلفظ المصنف ولا يلوي إليه ولا ما يستخرج من أبحاث لفظه ومفهوماته وما أخذه، وهو الموجب لشرحنا عليه المسمى ب" الدرر في شرح المختصر" نبهنا على فوائد فيه لم توجد في المطولات.

ويذكر أن **لأبي محمد المذكور** شرحا على درة الشيخ **أبي زيد سيدي عبد الرحمن في الحساب.**

أحمد المسبح أبو العباس القسنطينـي[1]:

جاء عنه في "منشور الهداية" للشيخ عبد الكريم الفكون، ما نصه الفقيه المدرس "**أبو العباس أحمد المدعو حميدة المسبح**".

أنظر (1) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية ص 47.

- الحفناوي محمد: تعريف الخلف... ص 73.

كان من المفتين بقسنطينة ومن ذوي فتياها، وممن له معرفة ونباهة وصدق، له من الشورى في النوازل ويقال: إن اعتماد أخيه عليه **(عبد اللطيف المسبح)** في بعض المهمات، إلا أن أخاه أشهر ذكرا لأجل مخالطته الأمراء.

توفي رحمه الله عام 981 هـ.

أبو محمد بركات القسنطيني[1]:

جاء عنه في منشور الهداية للشيخ عبد الكريم الفكون: "الفقيه النجيب المشارك أبو محمد بركات، ذو معرفة ودراية، كان منشغلا بالقراءة والإقراء والعكوف على الدرس والتدريس حريصا على الانتفاع".

أنظر (1) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية ص 47.

- الحفناوي محمد: تعريف الخلف... ص ص 108 109.

يقال أنه لا يكتفي بما يقرأ في الدروس حتى يأتي إلى الجد عبد الكريم بن يحي فيقرأ عليه ويمسكه في أي موطن جاء، وربما كان بدكّان سقيفته -رحمهم الله وغفر لهم- وكان الإخوة الثلاثة "عبد اللطيف أحمد بركات" ممن لهم محبة خالصة في جانب الجد عبد الكريم بن يحي يقفون عند أقواله معتقدين في آرائه لا يخرجون عن فتواه في نازلة ما.

توفي رحمه الله في زمن الطاعون عام 982 هـــ.

عاشور القسنطيني المعروف بالفكيرين:

وهو عاشور بن موسى المعروف بالفُكَيرين (بضم الفاء وفتح الكاف) وهو لقب والده، وقد نشأ في قسنطينة وأخذ العلم عن والده وغيره، ولاحظ عليه عبد الكريم الفكون أنه كان ذكيا، كان يقرأ عليه النحو، ويحضر حلقات الدرس، كما قرأ الألفية مع المكودي في جمع من المغاربة الواردين للقراءة، وبعد وفاة والده شد الرحال لطلب العلم في عدة بلدان، وغاب عن بلاده نحو عشرين سنة، هذه المدة الطويلة سمحت له بالإطلاع والملاحظة وحذق لهجات ومعرفة قبائل وشعوب وبلدان، ومن هذه البلدان التي قصدها تلمسان والمغرب الأقصى وبلاد السودان، وعندما رجع إلى بلاده **"أخبر بغرائب ما شاهد وعجائب ما رأى وما أخذ من أولئك العلماء وأرباب الأسراء، وحصل منهم فن القراءات وجانبا عظيما من الأدب"**(1)، لكن الأوضاع السياسية والاقتصادية والمظالم كانت السبب في هجرته مرة أخرى وكانت وجهته في هذه المرة تونس فاستقر بها مدة وانتصب للتدريس بالزيتونة، وكان **عاشور بن موسى** يكثر الحكايات واستحضار قطع الشعر، ومن تونس توجه بأهله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

أما عن وفاته فقد ذكر **أبو القاسم سعد الله** أنه توفي سنة *1087* هـ(2)، وذكر **ناصر الدين سعيدوني** أنه توفي بعد *1074* هـ(3).

فتصدر بفاس لإقراء **"جمع الجوامع"** للبسكري فأبدع في إقرائه ورأى الطلبة من حفظه ما لم يكونوا يعهدون فأكثروا الازدحام عليه، وتوجهت عيون أهل الدولة إليه فارتفعت مرتبته وأجريت له المرتفقات العالية وشمله درور إحسان السلطان، فمن دونه وكان مقبلا على ما يغيبه دؤوبا على المطالعة، لا يرى إلا في درسه أو مطالعة كتبه، قليل الكلام كثير الصمت ذا همة علية ومآثر سنية، لا يدع التهجد بالليل حضرا وسفرا، وكان يقرأ في

---

(1) - الفكون عبد الكريم: منشور الهداية ص 94.

(2) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2.ص 430.

(3) - سعيدوني نصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1999م. ص357.

زمن الشتاء ويتفرغ في زمن الصيف لمراجعة ما يلقيه في زمن الشتاء واجتمعت الكلمة على أنه أحفظ علماء عصره، بل ظهر من حفظه ما بهر العقول.

وممن أخذ عنه الشيخ سيدي محمد بن عبد السلام البناني، والأستاذ العلامة **سيدي إدريس بن محمد المنجري الحسني**، وكان يقول فيه إنه لم تر عيناي مثله.

قال في النشر: وله أجوبة حسنة في نوازل كثيرة دالة على مهارته واتساع ملكته، قال: ولملازمته في التدريس لم يتفق له التصنيف وإلا فهو أحق به، ولما دخل تطوان في أول قدومه للمغرب وقع بينه وبين قاضيها الفقيه **أبي عبد الله ابن قريشي وحشة**، فكتب له صاحب الترجمة بأبيات على حفظي منها قوله[1]:

لهف نفسي كل كسوف شموس	للعـــلوم وذلــــــة الغـــرباء
لهـــف نفسي على زمان عبوس	قمطرير ذي قســـمة ضيزاء
فأنا للعـــلى سمـــوت وحـــزت	رتبـــة لاتســــــام الجـــوزاء
وورثت العلـــوم قد مـــا يقـــينا	عن أبـــاء قســـاور نجـــباء
فأنـــا شمـــسها ونجـــم سمـــاها	حافظ العصر سيد النبـــلاء

وحدث عنه أصحابه قال: "بينما أنا جالس بالمشرقة التي بجامع الأبارين دخل علي رجل فقال لي في هذا العام بني ربع دارك، فلم أفهم مراده"، وظني بباب المشرقة مغلق، فتعاهدته فوجدته كما تركته، فلم أدر أين ولج الرجل علي ثم أتاني في العام المقبل فقال لي: "بني في هذا العام نصف دارك"، ثم أتاني في العام الثالث فقال لي: "بني ثلاثة أرباع دارك"، ثم في العام المقبل أتاني وقال لي: "بنيت دراك"، فكان يعلم بقرب أجله، فلم يمض إلاّ يسير فمرض مرض موته فأغمي عليه ثم أفاق، فقال لي: "جاءني ملك فقال لي تخلق بخلق النبي (ρ)"، فقيل له ما يعني بذلك ؟ فقال: "أن أختار الرفيق الأعلى"، وتوفي رحمه الله عند الغروب[2].

---

(1) - سعيدوني نصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. ص355.

(2) – المرجع نفسه. ص 355.

محمد بن أحمد القسنطيني:

الشيخ الإمام العالم العلم والركن الملتزم المستلم، العلامة القدوة المشارك التحريري، ذو البركات الظاهرة والقدر الخطير، أعجوبة الزمان وفريد العصر والأوان، الدراكة الحافظ المتقن المحقق الضابط الفهامة المدرس المدقق فارس المعقول والمنقول، والآتي في درسه بما يبهر العقول، ملحق الأواخر بالأوائل وعلم السراة القادة الأفاضل، الصالح البركة أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد القسنطيني الشريف الحسني المعروف عند أهل بلده بالكماد، قدم رحمه الله على فاس، وتصدر للتدريس بها فأفاد وأجاد وأخذ عنه الجم الغفير من كل بلاد، وكان آية من آيات الله في الحفظ والإتقان والتحرير العجيب وعزة الشأن، إماما نظارا مطلقا، وبنفائس العلوم ودقائقها متضلعا له الملكة في المنطق وعلم الكلام، والحفظ التام في علم حديث خير الأنام، مرجو إليه في الفقه وأدواته، مقصودا في حل مشكلاته كبير الباع تام الاطلاع، أذعن له الكافة من علماء عصره، وعظم صيته لدى الرؤساء وغيرهم من أعيان دهره، وأخبر عن نفسه أنه يحسن اثني عشر علما.

أخذ بجبل زواوة عن أبي عبد الله سيدي محمد المقري، وبالجزائر عن سيدي محمد بن سيدي سعيد قدورة، وعن غيرهما، قال في أثناء بعض إجازته لبعض تلامذته وقد أخذت صحيح البخاري وروايته عن الشيخين الإمامين أبي عبد الله سيدي محمد المقري، وأبي عبد الله سيدي محمد ابن الإمام الشهير الذكر الطيب النشر سيدي قدورة، ودراية لبعضه عن الثاني، وإجازة عن الشيخ العلامة الشريف المنيف سيدي محمد بن محمد عبد المؤمن قاضي الجزائر عن شيخه شيخ مصر على الإطلاق أبي الحسن علي الشبراملسي، عن شيخ المحدثين في زمانه الشيخ إبراهيم اللقاني، عن الإمام أبي الفجاة سالم السنهوري بقراءته لجميعة عن العلامة رحلة المحدثين نجم الدين القيطي، عن شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري المراد منها.

ثم ارتحل إلى فاس برسم القراءة على مشايخها، ويقال إنه وقف على الدالية لأبي علي اليوسي فاستحسنها وسأل عن ناظمها فأخبر بأنه حي بالمغرب فأقبل للأخذ عنه، فلما بلغه وجده مشتغلا بزحام الفقراء المتلقين منه.

وقد توفي عند غروب شمس يوم الجمعة الرابع من شهر الحرام فاتح سنة عشرة ومائة وألف (1116 هـ) وصلى عليه إماما الشيخ **سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي** بإيصائه بذلك.

قال في الصفوة ودفن قريبا من ضريح سيدي أبي غالب، وبنيت عليه قبة، وهي ساقطة في هذه الأزمان ليس لها أثر[1].

ومن الأبيات التي مُدح بها الكماد: هذان البيتان من صديقه عبد السلام القادري المغربي، حيث أنهما إلتقيا بالمغرب وتبادل الرجلان المدح والثناء والإشادة بالعلم وأهله، وقد أرسل القادري إلى شيخه القسنطيني قصيدة ينوه بفضله فيها فقال[2]:

إلى العالم النحرير والحجة التي ... روى فضلها عز السراة الجماهر

ألست الذي إن عز في العلم مشكل ... تلقاه فهم منك في زي باتر

فأجابه شيخه الكماد بقصيدة على وزنها وقافيتها مدح فيها تلميذه بالفضل وأصالة النسب والحسب وتشوق فيها إلى الديار المقدسة:

خليلي عج بالركب عن أم عامر ... وعرج على كثبان نجد حاجز

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف. ص353 إلى 355.

(2) - ناصر سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. ص 282.

عبد القادر الراشدي القسنطينـي:

هو عبد القادر بن محمد الراشدي: فقيه مالكي، قاض أصله من الرواشد (مدشر من مداشر فرجيوة)[1]، وهو العلامة المحقق المجتهد، الأصولي الكلامي قرأ في وقته وعضد زمانه، توفي أوائل العشر الثانية من الثاني عشر هجري[2].

أما عائلة الراشدي فإننا لا نكاد نعلم عنها الشيء الكثير سوى ما استطعنا إحصاءه من كتب التراجم، حيث تبدو عريقة في ميدان العلم والمعرفة[3].

إن الشيخ الراشدي قضى حياته في قسنطينة وبها سطع نجمه وانتشرت شهرته، فهو قد تولى مهنة التدريس بها في المدرسة التي أنشأها **صالح باي** بايزاء الجامع الأخضر.

إن الشيخ الراشدي لم يتول مهنة التدريس فحسب، بل قد تولى عدة وظائف أخرى، تولى القضاء المالكي والإفتاء، ولسعة علمه وتعدد معارفه وبلوغه درجة عليا من العلم، ادعى الاجتهاد في عصره وهذا الادعاء وغيره قد أحدث له متاعب ومشاكل من طرف خصومه الذين عملوا بكل الوسائل للقضاء عليه وعلى أفكاره التي انتشرت بين الطلبة والناس بصورة واسعة النطاق في قسنطينة وغيرها.

والشيخ الراشدي لم يكن عالم دين وحكم فقط بل كان رجل كفاح وجهاد فهو قد انضم إلى الجيش الجزائري الذي خرج من قسنطينة في طريقه إلى مدينة الجزائر بقيادة باي قسنطينة **صالح باي** للدفاع عن مدينة الجزائر[4].

---

(1)- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر. ص 145.

(2)- الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 228.

(3)- حمادي عبد الله: دراسات في الأدب المغربي القديم. ص 292

(4)- الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص ص 35. 36.

كما يقول فيه الشيخ حسن الورتلاني في كتابة نزهة الأنظار: "وقاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المحدث المفسر، صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة سدي عبد القادر الراشدي[1].

ومن شيوخ الراشدي الذين أخذ عنهم أحمد زروق البوني وغيره ومن تلامذته الذين أخذوا عنه المرتضى الزبيدي وغيره[2].

أما فيما يخص نسبة الراشدي، فالشيخ عبد القادر الراشدي ينسب أ صل عائلته إلى راشد، ويذكر في كتابه المخطوط -متسعة الميدان في إثبات وجه الوزن وآلته الميزان- أن الشيخ عبد الله بن عمر الورياغلي منشأ، الفاسي دارا الحسيني نسبا قال فيه[3]:

لله درك يـــا ابن الــراشدي فقـــد	أوضحت ما كنت قبل منه في محن
أفصحت عن باطل القوم الذي رأوا	أشيــاء في ظاهر الكتاب لم تكن
خالفـــت ما أسسوا بمحض رأيهم	و لم تغــرك منـــهم خضرة الدمن
وقلت قولا يـــرى المنصـــف صحته	تركته وشمـــه في ســاعد الــزمن
بـــذا أديـــن العـــرش معـــتصما	من الزلـــل المفـــضي إلى الشحن

إن هذه الأبيات إنما تقودنا للحديث عن الأجواء التي عاشها الشيخ العلامة عبد القادر الراشدي، فقد كان لشيخنا عدة آراء في مسائل دينية وغيرها هذه الآراء الصريحة التي أبداها الراشدي أثيرت حولها عدة مناقشات وردود عنيفة بينه وبين علماء وطلبة زمانه، وقد كونت هذه الآراء له فعلا عدة مشاكل خطيرة كادت أن تقضي على حياته، قال الشيخ الورتلاني في كتابه نزهة الأنصار[4]: "وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة

---

(1) - الورتلاني حسن: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. الجزائر 1908 تحقيق ابن أبي الشنب ص692.

(2) - الجزائري محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. تقديم وتحقيق د/ محمد بن عبد الكريم: دار الثقافة. بيروت. الطبعة الأولى. 1972 م.

(3) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 38.

(4) - الورتلاني: نزهة الأنظار. ص 697.

ومنازعة كبيرة، حتى رموه بالتجسيم، بل بعضهم كفره ومن الإسلام أخرجه، وذلك أمر عظيم في الدين، وقد قال الشيخ زروق إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلامية أهون عند الله من إخراج مسلم واحد إلى الكفر بشبهة كفرية، وكيف لا وهو أمر عظيم وذلك من تلامذته ومحبيه وهذه المسألة، قوله تعالى : **"لما خلقت بيدي "** فقال هو في اليد أنها يد حقيقية ومع ذلك أنها ليست جارحة ولا جسما بل يستحيل ذلك لأنه يؤدي إلى الحدوث والإمكان وقدح في التأويل بالقدرة أوصفة زائدة، يخلو بها الله الأشراف من الخلق، لأن التأويل محوج إلى الدليل والخروج من الحقيقة إلى نوع من المجاز فلم يكترث بالتأويل إذ البقاء مع الحقيقة هو الأصل ولأن التأويل وإن كان صحيحا ففيه ابتغاء الفتنة، وإنما تنتهي على التسليم لصحة التأويل وإن كان في علم الله، كذلك لأن المصيب في العقائد واحد فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفي الجارحة وما يؤدي إلى الإمكان والحدوث والتجسيم فمن قائل أن له يدا حقيقية والعلم بها موكل إلى الله تعالى يستلزم هذا التجسيم الذي يستلزم ما لا يليق به جل جلاله فاني أو كيف أو متى يلزمه.

لكن في الأخير يروح الورتلاني عن ضميره حين يطلعه الراشدي على رسالته الموضوعة لهذا الكلام فيقول الورتلاني " رأيتها منقحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم، وغايتها أنه يبطل أدلة المؤول ويصحح القول باليد حقيقة غير أنها لا يعلمها إلا الله لكن هذا كله بعد نفي التجسيم، وما يشعر بالإمكان والحدوث"[1].

مؤلفاته مع ذكر نماذج منها: للشيخ الراشدي عدة كتب ورسائل وغيرها.

1 – له كتاب شرح فيه سادسة عقائد السنوسي، ألفه زمن الشبيبة، وهذا الكتاب قد ضاع كما قال الراشدي.

2- له كتاب يسمى **"متسعة الميدان في إثبات وجه الوزن وآلته في الميزان"**. هذا الكتاب تعرض فيه الشيخ الراشدي إلى المتشابه في الاعتقادات[2] "كتاب محنة الراشدي الذي

---

(1) - الورتلاني: نزهة الأنظار. ص 698.

(2) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 42.

أصابته"، وهو الآن مخطوط ضمن مجموع رسائل الراشدي ويقع في حوالي 160 ورقة وهذا الكتاب حسب كلام الراشدي، يأتي لسد الفراغ، ويتم موضوع الكتاب الذي ألفه في شبيبته وضاع منه[1].

وهذا هو العمل الذي ذكره له بروكلمان في باب الطب والعلوم الطبيعية، كما أورد ذلك د/ أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص 428، ويقول الراشدي عن مؤلفه هذا أنه تم تبييضه وقت زوال يوم الخامس عشر من محرم فاتح شهور عام 1187هـــ.

وله كتاب **"عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس"** جاء في أول هذا الكتاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم، هذا كتاب المحققين المسمى بعقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس، الحمد لله ما وجد بخط شيخ الجماعة بحاضرة قسنطينة في وقته الشيخ عبد القادر الراشدي رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، ترك الجماعة من الأولاد منهم السيد محمد بن الحنيفة رضي الله عنه، فقد اجتمعت عليه الشيعة من الحجاز واليمن والعراق.

هذا الكتاب مخطوط فيه 55 صفحة، كل صفحة فيها ما بين 20 و21 سطرا[2]، هذا هو الكتاب الذي ذكره الحفناوي في تعريف الخلف، وقال فيه: "... تأليف صغير الحجم تعرض فيه لكثير من عائلات قسنطينة وقبائلها وبيان الشريف منهم العربي والبربري[3].

ومما جاء في تاريخ قسنطينة لأحمد بن المبارك بن العطار تحقيق رابح بونار ما يلي: "ومن هذه الكتب التي لا نعرف عنها شيئا كتاب عائلات قسنطينة وقبائلها وعربها وبربرها لعبد القادر الراشدي الذي مات أواخر القرن الثامن عشر ميلادي"[4].

---

(1) - الراشدي عبد القادر: تحفة الأخوان في تحريم الدخان. تحقيق ودراسة د/ عبد الله حمادي. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1997. ص 35.

(2) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 35.

(3) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 288.

(4) - ابن العطار أحمد بن المبارك: تاريخ قسنطينة. تحقيق رابح بونار. ص 16.

له قصيدة شرحها في الرد على أضداده في قضية المتشابه وتفضيل النقول على العقول أولها[1]:

خبــرا عــني المــــؤول أنــي	كـــافر بالذي قضـــته العقول
ما قضته العقـــول ليس من الدين	بل الـــدين مـــا حوته النقول
لتـــقولان إن ذا أكثـــر النــــا	س علـــيه وأنـــه لعـــــدول
شـــر عـــواهم من الدين ما لم	بإذن الله أو يقـــله رســـول
فاحـــذراهم ومن تلاهم إذا قيـــ	ل اتبعوا مترل الكتاب يقول
بل هنـــا نتـــبع الأبـــاء والأشيا	خ كمـــا قال كافر وضلول
ليـــس قـــولهـــم أئـــمة ديـــن	نافعا كلـــهم بكـــفر يصول
قـــال ربي في أئمـــــة كفـــــر	قاتلوهم لينـــتهوا أو يـــؤول
يبـــنوا مـــا به البيـــان بجـــهل	كذبوا كذبوه صـــدق فصول
أضـــــلال أو انتـــــفاء لحـــق	قال ببهدي وشبهه يا جهول
ونفـــى باطـــلا وأنبـــت حقـــا	ضمن نطق خطاب كل يهون
ونفى أن يكون مع حكمه حكـــ	م كـــذلك معـــقب وفلول
بعـــد هـــذا أفيـــه أخـــذ بكفر	بئسما نطقوا وبئـــس الترول

- له حاشيته على شرح السيد للمواقف العضدية.
- له رسالة في تحريم الدخان تسمى "تحفة الإخوان في تحريم الدخان".
- له رسالة في التوحيد في غاية النفاسة.
- له تقييد في صفحة على قوله تعالى : "ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار ص 49.

- له رسالة في حكم من جرى خلفه بالحرام ليفعلن علم يفعل رد فيها على بعض أهل عصره تقع في ست صفحات.
- له رسالة في التعليق على العلامة سعد الدين التفتزاني في شرح مقاصده في أفعال العباد.
- له مجلس في تفسير قوله تعالى: "وكل إنسان ألزمناه طائرة في عنقه".
- له وثيقة في حكم التحبيس على الذكور دون الإناث جاء فيها: "الحمد لله هذه نسخة رسم نقل هنا للحاجة إليه نصه:

"الحمد لله حضر بالحكمة الشرعية من قسنطينة المرعية بالله تعالى، لدى الشيخ الإمام العالم العلامة الغني بشهرته عن التمييز والعلامة، السيد عبد القادر الراشدي قاضي السادة المالكية بالبلد المذكور الواضع طابعه أعلاه دام غرة وعلاه، وشهديه المكرم الأجل السيد أحمد ابن المرحوم السيد محمد السعيد بن أبي القاسم الورتلاني..."[1].

ومما جاء في آخرها: فحكم حكما تاما أنفذه وأمضاه وسوغه وارتضاه وأوجب العمل بمقتضاه – شهد عليه سدده الله – وهو بمجلس حكمه ومحل فصل قضائه، بتاريخ: أوائل شهر ربيع الأول الشريف الأنور بمولده، صلى الله عليه وسلم عام *1188* هـ ثمانية وثمانين ومائة وألف[2].

- له كتاب يسمى: **"تجديد الإيمان في أواخر الزمان".**

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 49.

(2) - المرجع نفسه. ص 55.

أبو منصور عمار الشريف القسنطني[1]:

العلامة الشريف أبو منصور عمار الشريف: كان نخبة قسنطينة ودرة أعيانها فقيها، أديبا، أصوليا، بيانيا ومشاركا في جميع الفنون، أخذ عنه الونيسي الأصغر والميلي، وتقلد نضارة الأوقاف والقضاء مرتين والخطابة بجامع رحبة الصوف.

مات رحمه الله سنة 1241هـ.

محمد بن المسبح القسنطيني[1]:

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف ص 296.

أبو عبد الله الشيخ العلامة الجليل الأديب، الواعظ الخطيب، قاضي السادة الحنفية ببلد قسنطينة.

كان أديبا بليغا عارفا بالعربية واللغة والحديث مطلعا على علله، مشاركا في فنون من العلم جليلة، خطيبا مصقعا، فارس المنابر رقيق القلب، كثير الخشوع، له باع مديد في صناعة الخطابة والإنشاء، ذو صوت حسن فائق، ، وتذكير مؤثر رائق، إذا وعظ لين القلوب، وأزال الكروب، و لم يكن في زمانه وبعده مثله.

أخذ عن الشيخ عبد القادر الراشدي :وشيخ الإسلام أبي الحسن الونيسي، والإمام الحفصي وغيرهم، وكان مالكي المذهب، فحوله عثمان باي إلى المذهب الحنفي وولاه الخطابة بجامع سوق الغزل، وبه كان يصلي الأمير وولي قضاء الحنفية بقسنطينة مرارا.

توفي رحمه الله علم *1242* هـــ.

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف ص 296.

أبو منصور عمار بن شريط القسنطيني[1]:

العلامة الشهير الشيخ أبو منصور عمار بن شريط الفرد، الإمام والقدوة الهمام الحافظ الدراكة، نخبة أهل زمانه فقها وأدبا وعلما بالحديث والأصول، طويل الباع في علم البلاغة من نظراء الحفصي وأمثاله، تولى الفتيا المالكية ثم نظر الأوقاف.

مات في حدود سنة *1250* هـ.

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف ص 295.

محمد الونيسي القسنطيني[1]:

العلامة الإمام أبو عبد الله محمد فتحا بن الشيخ أبي الحسن الونيسي، نادرة زمانه وخليل أوانه، ولد عام ثلاثة وثلاثين من القرن الثالث عشر ومات وعمره سبع وعشرون سنة.

له من المؤلفات حاشية على "إيساغوجي" وحاشية على "صغرى الإمام السنوسي" ومؤلف في "أحكام الخنثى" وشرح على "البسملة"، ونظم في التوحيد وشرحه شرحين صغير وكبير، ونظم في التصريف وحاشية على "مختصر السعد"، ورسائل في مسائل متطرفة، وتقارير كثيرة على خطب في غالب الكتب المتداولة.

أبو راشد عمار الغربي القسنطيني[1]:

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 493.

العلامة الشيخ أبو راشد عمار الراشدي المعروف بالغربي، كان أديبا له الباع الطويل في المعقول والمنقول، شاعرا مجيدا وليّ الفتوى المالكية والخطابة بمسجد سيدي علي بن مخلوف والتدريس بمدرسة الكتاني ثم إلى جامع القصبة.

ألف حاشية جليلة على الشيخ إبراهيم الشبختري، شارح المختصر.

توفي في جمادى الثانية سنة *1251* هـ.

أنظر (1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 295.

- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر. ص 123.

مصطفى بن الشاوش القسنطيني[1]:

العلامة الشيخ أبو الوفا مصطفى بن الشاوش، أديب زمانه وفريد أوانه ذو العلم الجليل والفضل الشهير، كان متعلقا بمذهب أبي حنيفة متبحرا في العربية وفنونها.

أخذ عن الشيخ صالح بتونس، ورجع إلى قسنطينة، فدرس وأقرأ، وخطب بالجامع الأخضر، وأفتى على المذهب النعماني، وعرضت عليه الفتوى بعد موت الشيخ مصطفى باش تارزي فرفض.

توفي سنة 1252 هـ.

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 580.

أحمد بن محمد المبارك القسنطيني[1]:

العلامة الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المبارك، كان وقاد القريحة بديه الإدراك، واسع الفكر، عريض الفهم والإدراك، أسندت لعهدته رئاسة الطريقة الشاذلية، فأسسها على متون الشريعة وهذبها بنصائحه المفيدة.

درّس وألّف مؤلفات في شمائل الرسول ومعجزاته وله حاشية على شرح الأخضري لجوهره المكنون، مفيدة في بابها، وعارض عدة قصائد في مدح النبي (ρ).

أخذ عن العباسي وغيره، وولي مفتيا للمالكية والخطابة بالجامع الكبير.

مات رحمه الله عقب سنة *1265* هـــ.

عبد الرحمن باش تارزي[2]:

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص 78.

(2) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص ص 205 - 206.

هو العلامة الفهامة الولي الهمام، الشيخ السيد الحاج (عبد الرحمن باش تارزي) بن أحمد بن حمودة بن ما مش باش تارزي الجزائري المنشأ القسنطينـــي دارا، ناشر الطريقة الرحمنية في قسنطينة – التي أخذها عن شيخه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطولي الزواوي الأزهري – كان وحيد دهره علما وحكمة وإتقانا وصلاحا، نشر الطريقة الرحمانية في عهده انتشارا كبيرا ، توفي رحمه الله بمدينة قسنطينة، وهو مدفون بزاويته، وذلك في الثالث من جمادى الأولى عام *1221* هـــ.

وقد ترك عدة آثار قيمة منها كتب ومنظومات دينية كثيرة وقصائد وموشحات، تدل على غزارة علمه وعلة تدينه وتقواه واحترامه لأهل العلم والتفاني في نشر العلم والفضيلة لدى جميع الناس.

ومن أهم هذه الآثار:

- **كتاب غنية المريد في شرح نظم مسائل كلمتي التوحيد:** وهو كتاب مهم وقع طبعه بتونس في المطبعة الرسمية العربية، وكان ذلك سنة *1904*م، والكتاب ضخم فيه *352* صفحة يضاف إليه *30* صفحة، فيها قصائد دينية معتبرة، يوجد في أول الكتاب ورقة فيها نظم الشيخ عبد الرحمن الباش تارزي، في مسائل كلمتي التوحيد، هذا النظم فيه *28* بيتا وهو عبارة عن *45* مسألة، وفي شرحها من التحقيق ما يدل على أن الشيخ يتكلم عن بصيرة وعلم لدني.

استهل الشيخ الكتاب بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد. فلما رأيت كثرة الإخوان منشغلين بذكر لا إله إلا الله و لم يتعرضوا لمعرفة معناها ولا لكيفية النطق بها، وكذلك اسم الجلالة فطلب مني بعض أفاضلهم أن ألخص لهم كلاما في ذلك ليكون لهم عدة عند كل شدة، وأن كنت لست أهلا لذلك المقام، فعلى الله اعتمادي

في البدء والختام، فأوقع الله بيدي سؤالا ورد في سنة ست وسبعين وتسعمائة[1] فيما يتعلق بالاسمين المذكورين "لا إله إلا الله والله تعالى"[2].

- **المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية بالطريقة الخلوتية،** جاء في أولها:

باسمـــك نبدأ يا معين	والصـــلاة على الأمين
من أتـــــانا بالتـــلقين	في طـــريـــق الأوليـــا
يا من تـــريد الشـــفا	وإتبـــا ع المصـــطـــفى
أدخل طريـــق الـــوفا	طريـــق الخـــلوتيـــــا
يا من تريد التـــوفـــيق	وسلوك أهل التحـــقيق
أخدم هذه الطـــــريق	طريـــــقة الصـــــوفيا
يـــا من تريـــد الأوراد	وبلـــوغ مـــا يـــراد
ادخـــل طريق الإسناد	طـــريقـــا أزهـــــريا

وهكذا يسترسل الشيخ عبد الرحمن باش تارزي في هذا النظم بهذا الأسلوب الجميل إلى آخر المنظومة، وقد ختمها بقوله[3]:

---

(1) - في هذا التاريخ بالطبع لم يكن الشيخ موجودا لكن القصد أنه عثر على هذا السؤال الذي كان قد ورد من قبل علماء قبله.

(2) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 74.

(3) - المرجع السابق. ص ص 76. 77.

أنـا عبـدك ذليـل   وضعـيف وعلـيل

وأنت مـولاي جلـيل   اقبـل منـي دعـأيـا

والصـلاة والسـلام   على سـراج الأنـام

ما سوى الضيا الظـلام   في الأفـاق كـليـا

وعلـى الآل الأبـرار   والصحـابة الأخيـار

والأزهاري ذي الأنـوار   وجمـيع الأولـيـا

مصطفى باش تارزي[1]:

هو العلامة الشيخ مصطفى بن الشيخ ولي الله عبد الرحمن بن أحمد بن حمودة ابن ما مش المعروف بباش تارزي الجزائري، كان أعجوبة زمانه علما وحفظا وورعا وديانه، وحيدا في معرفة الفلك، حاملا لواء المذهب الحنفي، ولي القضاء بقسنطينة ثم الخطابة بجامع سوق الغزل ثم بجامع القصبة ثم بجامع سيدي الكتاني، كما كان شاعرا مجيدا، وله تآليف غزيرة منها ما هو مطبوع وما هو مخطوط أهمها:

– **كتاب المنح الربانية في شرح المنظومة الرحمنية:** وقد تم الاعتناء بهذا الكتاب من طرف الشيخ محمد بن بلقاسم شيخ زاوية الهامل ببوسعادة رحمه الله، فقام بطبعه بتونس بالمطبعة الرسمية التونسية سنة *1307* هـــ، ثم أعيد طبعه مرة ثانية بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط سنة *1351* هـــ.

وقد جاء في آخر الكتاب وهو مخطوط : وهذا آخر ما يسر الله تعالى جمعه في شرح هذه الأرجوزة المنورة المفيدة المختصرة القليلة الجرم الغزيرة العلم، وكان الفراغ من تجريده صبيحة يوم الاثنين لسبع بقين من ثاني الربيعين من عام واحد وخمسين وألف ومائتين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأواه وعلى آله وأصحابه وأولي الفضل والجاه[2].

– **له منظومة :**

هل يا ذا الجلال وسلمن على　　　　المصطفى والآل وكل منة تلا.

---

(1) - الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. ص ص 580 - 581.

(2) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 95.

قام بشرح هذه المنظومة العلامة الشيخ عبد القادر المجاوي وسماها "**مواهب الكبير المتعال**".

جاء في أول الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، الحمد لله الذي رفع حجاب الجهل عن ذوي النهى حتى بدت لهم شموس المعارف........ أما بعد فيقول العبد الفقير لرحمة ربه اللطيف الخبير عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن المجاوي، المعترف بقلة العمل والتقصير، قد أمرني شيخ أهل الوقت والطريقة ومعدن السر إلى الله والحقيقة، سيدي محمود بن عبد الرحمن باش تارزي أن أصنع شرحا مختصرا على قصيدة الشيخ الفاضل العالم العامل سيدي مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي قدس الله سره فأجبته لما طلب، وإن كنت ليس من أهل هذا الشأن، ولا أقدر أن أشالي في هذا الميدان لقصور همتي وقلة بضاعتي وخمود قريحتي، لكن لما رأيت التأليف من أعمال الخير وقد حض عليه ذوو الصلاح. بادرت إليه ليحصل لنا ببركاتهم وسميته "**مواهب الكبير المتعال**" جعله الله لوجهه الكريم، وسببا لحصول النعيم المقيم[1].

- **رسالة الجوهر** المنظوم في شرح قوله صلى الله عليه وسلم " من لم يستطع الباءة فليصم".

- **رسالة تحف الناظرين** في إبطال القول بنقض الحكم بصحة الوقف بعد موت الواقفين، وهي رسالة مخطوطة فيها 26 صفحة تقريبا، كما ذكر الأستاذ سليمان الصيد، كل صفحة فيها 18 سطرا خطها واضح يقرأ، جاء في أولها: "بسم الله الرحمن الرحيم الفتاح العليم والصلاة والسلام على سيدنا النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم حمدا لمن أحكم، الدين بأهل التمكين وأظهر الحق المبين بفضله ولو بعد حين، وكشف عن غوامض الأحكام ظلمه الوهم والرين، وصلاة وسلاما على أكمل المرسلين، القائل من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فيقول تراب أقدام العلماء العاملين قليل البضاعة بين العالمين "مصطفى بن عبد الرحمن الخلوتي الحنفي عامله الله بالغفران واللطف الخفي، هذه الكلمات قاطعة بحجتها أوهام بعض الناظرين من الفضلاء المعاصرين، معتمدين على مجرد عبارة رواها مسطرة لبعض المتأخرين، لغير جميل غرض ثابت بيقين، وسيعلمون نبأ ذلك بعد

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 97.

حين جمعتها من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لتكون عونا على القضاء بالحق المبين وصدا للمعتدين على أوقاف المسلمين، وسميتها تحفة الناظرين في إبطال القول بنقض الحكم بصحة الوقف بعد موت الواقفين ورتبتها على خاتمة ولمعتين، فقلت بعدما استخرت راجيا من الله تعالى الحفظ من الخطأ والزلل في القول والنية والعمل... إلخ".

وجاء في آخرها: "ولنمسك عنان القلم عن المزيد، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، حامدا مصليا مسلما على النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم"(1).

- **رسالة تحرير المقال في مسألة الانتقال:** هذه الرسالة مخطوطة فيها *16* صفحة كما ذكر الأستاذ سليمان الصيد، كل صفحة فيها *18* سطرا، خطها واضح مثل سابقتها جاء في أولها:"... حمدا لمن تنزه عن التبديل والتغيير والانتقال، وشكرا لمن أزال نقاب الشبهة عن وجه السؤال وصلاة وسلاما على النبي المرشد إلى السداد والكمال، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى واختلافهم رحمة للعباد في كثير من الأعمال، وبعد: فلما كثر السؤال عن حكم من انتقل إلى غير المذهب الذي كان مقلدا له، وإليه ينسب، سألني من لا يسعني مخالفته أن أجمع له نبذة مختصرة في ذلك مما حرره الفحول من فروع وأصول، فاستخرت الله تعالى وامتثلت وبه تعالى لا بغيره استعنت، وسميتها تحرير المقال في مسألة الانتقال ورتبتها على مباحث ثلاثة وخاتمة..."(2).

- **رسالة الجواب عن السؤال:** هذه الرسالة مخطوطة أيضا تقع في *03* صفحات كبار، كل صفحة فيها *30* سطرا، خطها واضح يقرأ.

جاء في أولها: الحمد لله إذا قال الواقف من مات منهم أي من أولاد الواقف عن غير عقب رجع نصيبه لأقرب قريب إليه، فمات أحدهم عن غير عقب وله إخوة أشقاء وإخوة لأب هل يدخلون في نصيبه جميعا أو يختص به الأشقاء ؟.

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 98.

(2) – المرجع نفسه. ص 102.

الحمد لله بعد أن تصفحت المقصود من السؤال وما أجاب به بعض أولى الألباب، قلت وبالله اعتصمت أن الغير في قول الواقف من مات منهم من غير عقب رجع نصيبه لأقرب قريب له، إن عاد الضمير إلى الواقف لتقدمه أيضا فنصيبه يرجع لجميع إخوته ولا يختص به الأشقاء قطعا لأن نسبة البنوة إلى الواقف واحدة ولو عاد الموقوف عليه لقربه كما هو الظاهر..."[1].

كانت هذه أهم المؤلفات للشيخ مصطفى باش تارزي ولكنها ليست كلها، فهو بحكم توليه مهنة القضاء والتدريس والإفتاء وغير ذلك في مدينة قسنطينة، فله عدة رسوم تثبت أسلوبه القوي الواضح في معالجة المسائل، وتبين بوضوح مقدرته الفائقة في تحرير الرسوم الشرعية، كما أن له عدة رسائل منه وإليه يسأله الناس فيها عن أمور الشريعة، وذلك بحكم مركزه كشيخ للزاوية بقسنطينة بعد وفاة الوالد، ولأن الزاوية كانت لها سمعة ذائعة في الجزائر ولأنها تنسب إلى الطريقة الرحمنية، هذه الأخيرة التي كانت في ذلك الوقت تعتبر كوزارة تعليم وشؤون دينية.

وفي الأخير لا ننسى أن نذكر أن الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي قد توفي شهيدا بالطاعون وذلك سنة 1252 هـ.

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 102.

الحاج أحمد المبارك بن عمر بن محمد بن العطار القسنطيـني[1]:

الحاج أحمد بن عمر بن محمد العطار القسنطينـــي المعروف بالحاج أحمد المبارك، ولد بقسنطينة حوالي *1790*م وقضى طفولته بميلة عند أعمامه بن العطار حيث درس مبادئ الفقه والعربية بزاويتهم، ثم انتقل إلى قسنطينة لتلقي العلم بها على يد بعض شيوخها المشهورين منهم الشيخ عمار الغربي، وعمار الميلي ومحمد العربي بن عيسى والشيخ العباسي الذي تأثر به كثيرا.

اشتغل الحاج أحمد بالتجارة في شبابه، وكان يتردد على تونس للتزود بالبضائع كالعمائم والحرير وأنواع العطور، وقد حضر أثناء وجوده بتونس بعض الدروس بجامع الزيتونة، وبعد أدائه فريضة الحج استقر بقسنطينة وتولى التدريس بالجامع الأعظم خلفا لشيخه العباسي بعد وفاته، ثم اسند له الإفتاء المالكي بعد وفاة محمد العنابي، وعين نظرا لمهامه هذه عضوا بالمجلس الشرعي الإسلامي بقسنطينة، وتولى أثناء ذلك مهمة التدريس بالمدرسة الحكومية تحت إدارة الشيخ محمد الشاذلي ثم لم يلبث أن عزل عن مهامه، بعد أن ثبت اتصاله سريا بالحاج أحمد باي المغضوب عليه من طرف الإدارة الفرنسية، بعدها ظل وفيا للطريقة الحنصالية المنتسب إليها، والتي أسسها الشيخ يوسف الحنصالي الذي كان من ضواحي قسنطينة واشتهر أمره في عهد المتأخرين، حتى كانت داره تعتبر ملجأ لا يُمس أحد فيها بسوء، ولقد أدخل الشيخ أحمد الزواوي الطريقة الحنصالية إلى قسنطينة واعتبر الحاج أحمد المبارك لدى إتباع هذه الطريقة من مساعدي المرابط **"حمو بن الزواوي"** مقدم الحنصالية.

هذا وقد ظل الحاج أحمد منتميا لهذه الطريقة حتى وافته المنية في مستهل رجب من عام *1287* هـــ الموافق ل *05* أكتوبر من سنة *1870*م، وحمل من طرف إخوان الزاوية الحنصالية ليدفن بمقر الزاوية الواقع بجبل شطابة على بعد عدة كيلومترات من قسنطينة.

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص ص 509 - 511.

ولقد وصف الحفناوي الشيخ أحمد المبارك القسنطينـــي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف بأنه "**وقاد القريحة، بديه الإدراك، واسع الفكر، عريض الفهم والإدراك** ".

بالإضافة إلى ذلك ذكر أنه أسندت لعهدته رئاسة الطريقة الشاذلية، لكنه لم يقدم برهانا على ذلك، كما ذكر أن تاريخ وفاته كان عقب سنة 1265 هـــ.

ترك الشيخ أحمد العديد من التقاييد منها منظومة في الإشادة بشيخه العباسي، وقصيدة في مدح الرسول (ρ) وميثاق للطريقة الحنصالية بعنوان "**السلسلة في طريقة الشيخ الزواوي**" وحاشيته على منظومة الشيخ عبد الرحمن الأخضري "**الجوهر المكنون في الثلاثة قرون**" وهي أصناف البلاغة من معان وبيان وبديع وصفها تحت عنوان "**سلم الوصول مع الصلاة على الرسول**".

غير أن ما اشتهر به الشيخ أحمد المبارك وعف به هو تاريخه حول مدينة قسنطينة المعروف ب" **تاريخ حاضرة قسنطينة**" وهو مصنف صغير الحجم لا تزيد صفحاته عن 38 صفحة، غير أنه يحتوي على معلومات مهمة تعرض فيه باختصار للأحداث التي عرفتها قسنطينة في العهد العثماني، مع إشارة سريعة في مستهله إلى تأسيس المدينة وموقعها وتحصيناتها، وقد ركز فيه بالخصوص على بعض الأعمال العمرانية لصالح باي وقصة مقتله، وتولي حسن باي مكانه، مع ذكر بعض الحصارات التي تعرضت لها قسنطينة من الأعراب الهلاليين، ومن أبي عنان المريني ومراد الباي التونسي وحمودة باشا الحسني التونسي، والثائر ابن الأحرش الدرقاوي، هذا بالإضافة إلى تعريف موجز ببعض البايات الذين تولوا الحكم ببايلك قسنطينة مثل **حسين الكلياني، حسن بوحنك، حسن أزرق العينين، أحمد باي القلي، صالح باي** قبل أن يختم كتابه بترجمة لكل من الشيخين **فتح الله وأحمد القبائلي** على بعض الكتب المتداولة ذكر منها : المؤنس لابن دينار القيرواني على أن مصادره الأساسية هو ما أخذه عن الشيوخ الذين عاصروا الأحداث وتناقلوها عن طريق الرواية.

ولقد تميز تاريخ قسنطينة بأسلوبه السهل الذي يغلب عليه ضعف الربط، وبلغته البسيطة التي تتخللها الألفاظ الدارجة والتراكيب العامية التي تعكس مستوى ثقافة عصره،

ووضع الكتاب حوالي سنة *1852*م، بطلب من مدير المكتب العربي بقسنطينة **"بواسوني"** وهذا ما جعله يُهمل الحياة الثقافية والأوضاع الاقتصادية ، ويركز على الأحداث السياسية التي تميزت بتعدد الاضطرابات والفتن وكثرة مظالم البايات التي أثارت حفيظة السكان، وكأنه بذلك يريد أن يثبت محاسن الإدارة الفرنسية التي يمثلها **بواسوني**، التي كانت تتظاهر بفرض النظام وإقرار العدل قبل أن تظهر للعيان الأثار السلبية للسياسة الاستعمارية الفرنسية المعادية للمقومات الحضارية للأمة الجزائرية، وهو بذلك شبيه بمعاصرة **صالح باي.**

قام بترجمة تاريخ حاضرة قسنطينة إلى الفرنسية مدير المدرسة الرسمية بقسنطينة **: ألفريد دورنون** *Alfred dournon* ونشره بالمجلة الإفريقية سنة *1913*م اعتمادا على نسختين إحداهما بالمكتبة الوطنية الجزائرية، وهي أكمل النسخ والأخرى بمكتبة مدرسة الجزائر ومؤرخه في *23* صفر *1265* هـــ - *5* ديسمبر *1852*.

وقد قام بعد ذلك بإصدار الأصل العربي مع تصحيحه والتعليق عليه**.** ووضع عناوين لفقراته نور الدين عبد القادر بالجزائر سنة *1952*م**.**

صالح بن محمد العنتري:

هو صالح بن أحمد العنتري، ولد بقسنطينة في أوائل القرن التاسع عشر ما بين سنة *1205* هـــ/ *1790* م، أو *1215* هـــ/ *1800*م، وتوفي بها سنة *1293* هـــ/ *1876*م[1].

وينسب إلى عائلة عريقة اشتهرت بالاشتغال في وظائف الكتابة والمهام الإدارية، فأبوه محمد كان كاتبا لدى الحاج أجمد باي آخر بايات قسنطينة، وقد بعثه الحاج أحمد باي ليفاوض الفرنسيين حين هاجموا قسنطينة، وعسكروا بقالمة فاجتمع بهم محمد العنتري في حمام المسخوطين، وفاوضهم حول المهمة التي كلف بها ثم عاد إلى قسنطينة وأخبر الباي بما رأى وسمع فنقم هذا عليه واتهمه بالخيانة ثم قتله، أما جده أحمد فقد كان كاتبا بديوان **صالح باي** (*1771*م – *1791*م) أما صالح العنتري فقد اشتغل بوظيف الكتابة بالمكتب العربي الذي أنشئ بقسنطينة تحت إشراف وإدارة الضابط الفرنسي بواسوني ***Boissonet*** برتبة (خوجة الدائرة).

تلقى صالح العنتري تعليمه بقسنطينة على يد شيوخ أجلاء أشهرهم أحمد العباسي، وعلي التونسي وعمار المغربي ومحمد عبد الرحمن باش تارزي، وأظهر منذ صغره ولعه بالأخبار والتواريخ وميلا إلى العمل الإداري، فالتحق بالوظيف باكرا، وتولى كتابة تحرير الكتابات باسم الضابط الفرنسي بواسوني، وأثناء ذلك اكتسب إطلاعا على الثقافة الفرنسية، واشتغل مدة بالتدريس ثم تولى القضاء بقسنطينة، وعد من مجموعة علماء قسنطينة وأعيانها الذين شاركوا في رحلة إلى باريس سنة *1844*م واطلعوا على المظاهر العمرانية بها، وهو: **محمد بن القاضي، محمد الشاذلي، أحمد بن المبارك، بلقاسم بن محمد بن عيسى، محمد بن المسبح، أبو منصور عمار بن شريط، عمار المغربي ومصطفى شاوش.**

اشتهر صالح العنتري بكتابين ألفهما أثناء قيامه بوظيفته في " **بيرو عرب** " بقسنطينة أولهما هو **الأخبار المبينة المذكورة في تاريخ قسنطينة سنة *1846*م**، الذي ألفه تلبية لطلب الضابط "بواسوني" متولي المكتب العربي بقسنطينة، وتوقف فيه عند زيارة الدوق **دمال**

---

(1) - الطمار محمد: تاريخ الأدب الجزائري. ص 533.

قسنطينة صيف 1846م، وقد عرف هذا الكتاب بعناوين مختلفة منها : " **كتاب الأخبار المبينة في تاريخ قسنطينة، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها** " وذكر شيء مستفاد من سيرة باياتها إلى انقضاء دولتهم واحتواء الفرنسيين على ممتلكاتهم، وتضمن أخبار قسنطينة في العهد العثماني منذ **فرحات باي** عام (1057 هـــ - 1647م). مع التوسع فيما يتعلق بأحمد باي والفترة الأولى للاحتلال.

يعتبر تاريخ بايات قسنطينة للعنتري من أوائل الكتب التاريخية التي عالجت تاريخ قسنطينة بالتفصيل، اعتمادا على الروايات والمشاهدات والاستناد إلى وثائق العائلات العريقة بالمدينة، والوثائق الرسمية التي وضعها المكتب العربي تحت تصرفه، وهذا ما جعله ينفرد بإيراد أخبار لم يذكرها غيره من معاصريه مثل **أحمد المبارك، النميري**، غير أنه يلاحظ على العنتري تهجمه على الحاج **أحمد باي**، ذلك لأنه ظل يحمل هذا الباي مسؤولية قتل والده عام 1837م، ولعل هذا ما جعل العنتري يميل إلى الفرنسيين ويُبدي إعجابه بانجازاتهم مدفوعا بتأثير الضابط الفرنسي **بواسوني** عليه ومحاولته إقناعه بذلك، وقد أدى به نفوره من **أحمد باي** إلى إثارة حفيظته على الحكام العثمانيين، لاسيما المتأخرين منهم ووصفهم بالضعف والظلم والاستبداد، وهذا ما عبر عنه في فريدة مؤنسة بقوله :" إن الأتراك في بدء أمرهم حين لم يتمكنوا من الوطن كل التمكن عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا، وحين تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق، ويعدون ولا يوفون، ويؤّمنون ويغدرون، كما يعلم مما تقدم، ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تجاوز الحد في ولاية **الحاج أحمد بن محمد الشريف** الذي أخذت قسنطينة في زمان ولايته"[1].

تم طبع ونشر هذا الكتاب: تاريخ بايات قسنطينة لأول مرة في قسنطينة بمطبعة فان سنة 1846م، ثم قام السيد **دورنون** Dournon بعد سنوات من ذلك بترجمته إلى الفرنسية ونشره في مجلة مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينـــية عام 1929م.

أما عن ثاني الكتابين فهو:

(1) - الطمار محمد: تاريخ الأدب الجزائري. ص 534.

"سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة" وقد ألفه باقتراح من الضابط الفرنسي **دولير** سنة *1870*م الذي تولى أمور المكتب العربي بقسنطينة في تلك الفترة، وقد أراد أن يطلع على أحداث المجاعات التي مرت بها قسنطينة ونواحيها فألف له العنتري هذا الكتاب.

وقد تعرض فيه للأوضاع الاقتصادية، وما تميزت به من أزمات أواخر العهد العثماني وأوائل فترة الاحتلال، وقد اهتم فيها صالح العنتري خاصة بإبراز الظروف التي تسببت في حدوث القحط والغلاء، وبذلك كان موضوع الكتاب موضوعا طريفا وغريبا بالنسبة للموضوعات التي كان يطرقها كتاب عصره.

لقد عالج صالح العنتري هذه الأحداث الاقتصادية بروح علمية جعلته يبحث عن الأسباب القريبة التي تفسر الظاهرة الاقتصادية تفسيرا مقنعا، متلمسا العلل عارضا الأحكام والظواهر الاقتصادية بين العهد العثماني وفترة الاحتلال الفرنسي معتمدا في ذلك على المعلومات التاريخية التي استقاها من شيوخ مسنين ورواة ثقاة عاشوا تلك الفترة وتأثروا بأحداثها، وقد كان العنتري مدركا لطرافة موضوع كتابه وفائدته، حيث قال عنه في آخره: " إن في هذا الكتاب أمورا يستحسنها أهل الرأي والتدبير، الساعين في جلب المصالح للجليل والحقير"[(1)].

وقد قام بتحقيق كتاب أو مخطوط صالح العنتري الأستاذ المحترم **رابح بونار** اعتمادا على نسخة من المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم *2330* ونشره تحت عنوان **مجاعات قسنطينة** مع مقدمة إضافية وذلك بالجزائر سنة *1974*م (في 76 صفحة).

- كما أن للعنتري تقويما مقارنا للتاريخ الهجري والميلادي سماه **"هدية الإخوان في موافقة التاريخين، وتوقيعات الزمان، وفوائد متفرقة لها شأن"** أدرج فيه فقرات من الإنجيل، وبعض آراء الجزائريين في الحضارة الغربية، ودروسا في اللغة الفرنسية، وذلك بهدف اطلاعهم على الثقافة الفرنسية وتقريبهم من إدارتها حسبما أو عزله بذلك **بواسوني**.

رسائل العنتري:

---

(1) - العنتري صالح: مجاعات قسنطينة. ص 73.

أما عن الرسائل فله **"إخوانيات"** وهي عبارة عن رسائل شخصية للعنتري كان قد كتبها لبعض أصدقائه ومعارفه وجهها إلى المترجم **فيرو** يعرض فيها حالته، ويشكو من معاملة الفرنسيين له وعدم تقديرهم لخدماته، وتعتبر نموذجا لهذا النوع من الرسائل الإخوانية التي تعكس جانبا من حياة صالح العنتري.

تميز صالح العنتري فيما كتبه عن تاريخ قسنطينة أو ما سجله من أزمات اقتصادية بالشرق الجزائري، بوفرة معلوماته، وتنوعها مقارنة مع الشيخ **أحمد المبارك** وكذلك بدقة ملاحظاته ونظرته المحايدة، فضلا عن احترامه سياق العرض التاريخي للأحداث مع تجنبه للاستطراد إلا **فيما يراه ضروريا كضرب الأمثال الشعبية وإثبات أقوال الأولياء.**

ولعل ما يؤخذ على العنتري هو إعجابه بالحكم الفرنسي والميل له وتفضيله على الحكم العثماني أثناء المقارنة بينهما، والسبب في ذلك هو موقعه من الأحداث وتأثره بالتطورات التي شهدتها مدينة قسنطينة أثناء وبعد حكم الحاج **أحمد باي.**
يعتبر تاريخ العنتري مصدرا أساسيا للفترة الأخيرة من العهد العثماني والسنوات الأولى للاحتلال وقد أخذ عنه بعض من كتب عن هذه الفترة مثل:
" **مرسي** *Mercier* "، " **فايست** *Vayssettes*" ، " **اللنباري** *Lanbary*" الذين اعتمدوا على تاريخه فيما كتبوه عن تاريخ قسنطينة، ولاسيما في الفترة الأولى للاحتلال *1837 - 1846*.

محمد الشاذلي القسنطينـي:

هو محمد بن الحاج محمد بن إبراهيم بن أحمد الصولي من قبيلة البوازيد التي تقطن طولقة بالزيبان، ولد محمد سنة 1222هـ/1807م، وحين هاجرت الأسرة من موطنها إلى مدينة قسنطينة لما كانت منطقة الزيبان تشهده من ظلم الطبيعة وانتشار الأوبئة وجور الحكام.

وكانت قسنطينة أثناء تكوين الشاب محمد الذي أختصر اسمه إلي محمد الشاذلي، تشهد حركة علمية على رأسها نفر من شيوخ العلم التقليدين الذين تلقى على أيدي بعضهم معارفه الأدبية والفنية.

فقد قرأ الفقه والحديث واللغة والأدب والخطابة والحساب وحضر مجالس الشيخ محمد بن سالم والشيخ أحمد العباسي الذي كان يتمتع بشهرة واسعة في المنطقة والذي تولى القضاء المالكي والخطابة في مسجد رحبة الصوف، وأخذ عنه الشاذلي الحديث والقراءات والأدب واللغة وتأثر به وقرأ كذلك عن الشيخ ابن طبال الفقه والأصول، كما أخذ على الشيخ مصطفى باش تارزي رأس الطريقة الرحمانية علوما شتى.

كما أنه وأثناء هذه الفترة من تكوين الشاب محمد الشاذلي تداول على ولاية قسنطينة عدد من البايات الأتراك والكراغلة منهم: (أحمد القلي، صالح باي، أحمد طبال، محمد نعمان، جعفر باي، قارة مصطفى، أحمد المملوك، محمد الميلي، إبراهيم باي، منماني باي، ثم الحاج أحمد باي الذي احتلت قسنطينة في عهده).

وبعد أن استقر حكم الفرنسين لمدينة قسنطينة لم يكن أمام محمد الشاذلي طلب العمل إلا من السلطة الفرنسية التي تسيطر على جميع الأمور خاصة وأنه مما لاشك فيه قد تزوج وأصبح مسؤولا عن أسرة بعدة أولاد، فما عليه إلا أن يتجه إلى المكتب العربي الذي تأسس في المدينة وأعطيت له صلاحيات النظر في جميع الشؤون الأهلية، وكانت الوظائف الممكنة له ولأمثاله لا تخرج عن الإمامة أو التدريس والقضاء وقد أصبحت كلها تحت تصرف الفرنسيين.

وفي سنة 1844م عين محمد الشاذلي في وظيفة قاضي مالكي في قسنطينة وكان ذلك من الضابط (بواسوني) لأنه كان رئيس المكتب العربي بالمدينة وقد ظل الشاذلي في هذه الوظيفة حوالي عشرين عاما كما تولى الشاذلي بالإضافة إلى ذلك إدارة مدرسة سيدي الكتاني منذ تأسيسها سنة 1850 وظل محافظا على إدارة هذه المدرسة إلى وفاته سنة 1877م. أما عن خرجات الشاذلي ورحلاته فقد قام خلال 1844م -1849م بثلاث رحلات إلى فرنسا وأوربا.

فرحلته الأولى وقعت في خريف سنة 1844 وذلك ضمن سياسة الجنرال (كلوز يل) التي تقضي بإرسال بعض أعيان الجزائر إلى فرنسا لمشاهدة عجائبها وحضارتها وتقدمها من اجل العودة والتأثير على المواطنين الجزائريين ومبشرين بهذا الصرح الحضاري الذي تعيشه فرنسا.

وقد رافق الشاذلي في هذه الرحلة سبعة من أعيان الشرق الجزائري وهم: علي بن احمد، الأخضر بن واني، البروبي، بوالخراس، ولد أخي شيخ العرب، احمد ولد مقران، احمد ولد احمد بن محمد خليفة مجانة والعالم الحاج ابن الخروبي، وانتهت رحلة الشاذلي في أواخر سنة 1844م عاد منها بوسام من السلطة الفرنسية تعترف من خلاله بخدمات الشاذلي وتعاونه مع فرنسا في محاولة الحفاظ على الأمن والسلام في أرض الجزائر.

أما عن رحلته الثانية فقد كانت أطول من الأولى وشخصية تمتع فيها بشيء من الحرية وأكثر من التنقلات والزيارات الخاصة فقد كانت بالدرجة الأولى علاجية لما أصاب عينيه من ضعف يزداد يوما بعد يوم، فذهب في أوائل سنة 1847م يستنجد بالطب في فرنسا:

فإلى جانب جلساته العلاجية فقد كان الشاذلي الأديب كثير الرغبة في الإطلاع على كل شيء إلى درجة أنه زار ذات مرة أكاديمية الآداب والفنون الفرنسية، وحضر إحدى جلساتها الخاصة، وكان رفيقه في هذه الزيارة الضابط "بواسوني".

كما إن الشاذلي يتردد على المكتبات وبالأخص المكتبة الملكية حيث كان هناك يطلع على المخطوطات العربية النادرة، كما لم يفت الشاذلي أن يحضر بعض جلسات البرلمان الفرنسي أثناء مناقشة ميزانية الجزائر أو بعض المشاريع المتعلقة بها. كما قام بزيارات للمحاكم الفرنسية والمجالس القضائية ، وشاهد كيفية تطبيق التشريعات والقوانين في فرنسا.

ورغم أن هذه الزيارات كانت شخصية إلا أنها لم تخل من الزيارات الرسمية والحفلات الملكية والأوسمة الشرفية أيضا فقد استقبله (الدوق دومال) استقبالا خاصا في منزله الواقع بــ (شاتي)، وصادف وجوده في باريس وصول ثمانية آخرين من أعيان وطنه وكانوا هذه المرة من الغرب الجزائري ومن الوسط، وفي الرحلة الثانية لم يقتصر الشاذلي على فرنسا فقط ولم يثبت فيها بل تجاوزها إلى بلجيكا وإنكلترا، فالأولى لم يجد فيها أية صعوبة بالنسبة للتواصل والتفاهم باعتبار أهلها يتحدثون الفرنسية رغم أن الشاذلي لم يكن يتقن الفرنسية جيدا لكنه كان يعرف ما يجعله يفهمها بسهولة.

أما في إنكلترا فقد وجد أن الشعب هناك يختلف في كل شيء عن الشعب الفرنسي رجالا ونساء، وحتى البيوت والطابع العام للمدينة.

ولا شك أن الشاذلي لم يجد في لندن ما وجد في باريس من أصدقاء وتكريم وأوسمة.

أما الرحلة الثالثة فقد كانت *1849*م- *1850*م، وقد كان الهدف الظاهري منها مؤانسة الأمير عبد القادر أثناء سجنه في فرنسا، وكانت قد استغرقت فترة أطول من الأولى والثانية وحملته إلى باريس وأمبواز.

أما عن الآثار التي خلفها محمد الشاذلي فهي عبارة عن مجموعة من الرسائل ومجموعة أخرى من القصائد نتحدث في هذا الفصل عن الرسائل ونؤجل الحديث عن القصائد إلى الفصل الموالي.

إن الرسائل التي تركها الشاذلي تندرج ضمن الرسائل الإخوانية التي تسري بين الأحباب والأصدقاء، ومجموعة رسائل الشاذلي كانت موجهة إلى صديقه وولي نعمته

الضابط "**بواسوني**" الذي كان مسئولا عن المكتب العربي بمدينة قسنطينة، وتبدأ هذه المراسلات بداية سنة *1848* عندما ترك "**بواسوني**" قسنطينة واستقر بفرنسا.

وأول ما نبدأ به هو رسالته إلى الضابط بواسوني في مطلع سنة *1848*م التي أرسلها فور عودته من باريس ضمن الوفد الجزائري الذي كان هناك وسط وغرب البلاد، ثم كانت هناك مراسلة أخرى في شهر جويلية سنة *1848*م، حيث طلب منه أن يلحقه به إلى المشرق وبالضبط إلى الإسكندرية، وهذا لا لشيء إلا أن الشاذلي لا يريد البقاء في قسنطينة بعد غياب "بواسوني" عنها فهو بلا شك لم يجد راحته مع الحكام الجدد هناك.

وهكذا توالت الرسائل من الشاذلي إلى بواسوني في مختلف المناسبات وبغيرها وبمختلف القضايا العائلية والخاصة التي كانت طالما نشغل بال وفكر الشاذلي.

فرسائل الشاذلي تكشف لنا عن أديب بارع رقيق الأسلوب فني العبارة حلو الألفاظ خفيف الروح، وهذا ما نلمسه من هذا المقطع في هذه الرسالة التي بعث بها إلى صديقه بواسوني سنة *1854*م حيث يستهلها: "حضرة الخليل، صاحب القدر الجليل، ثمرة الفؤاد، وزينة الناد، من اشتياقه كل يوم، ولم تفارقني صورته حتى في النوم، محب الخير وأهله، والساعي إلى المكرمات بقوله وفعله، السيد الكماندة -**بواسوني**- كان الله له، وبلغه بفضله أمله، آمين السلام عليكم، وعلى من شملته حضرتكم، سلام من المسك أذكى، ومن كل نام أزكى، تعمكم نفحاته، ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد فإن سألتم عنا فنحن كما تعلمون ومن عدم مكاتبكم متحيرون، وجال فكرنا في المانع، والسبب القاطع ،فتارة أقول نسيتمونا حتى لم نخطر ببال، لكن بقاؤكم لنا خير يزيل عنا البؤس والضير"[1].

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي القسنطيني دراسة من خلال رسائله وشعره. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1972م. ص 93.

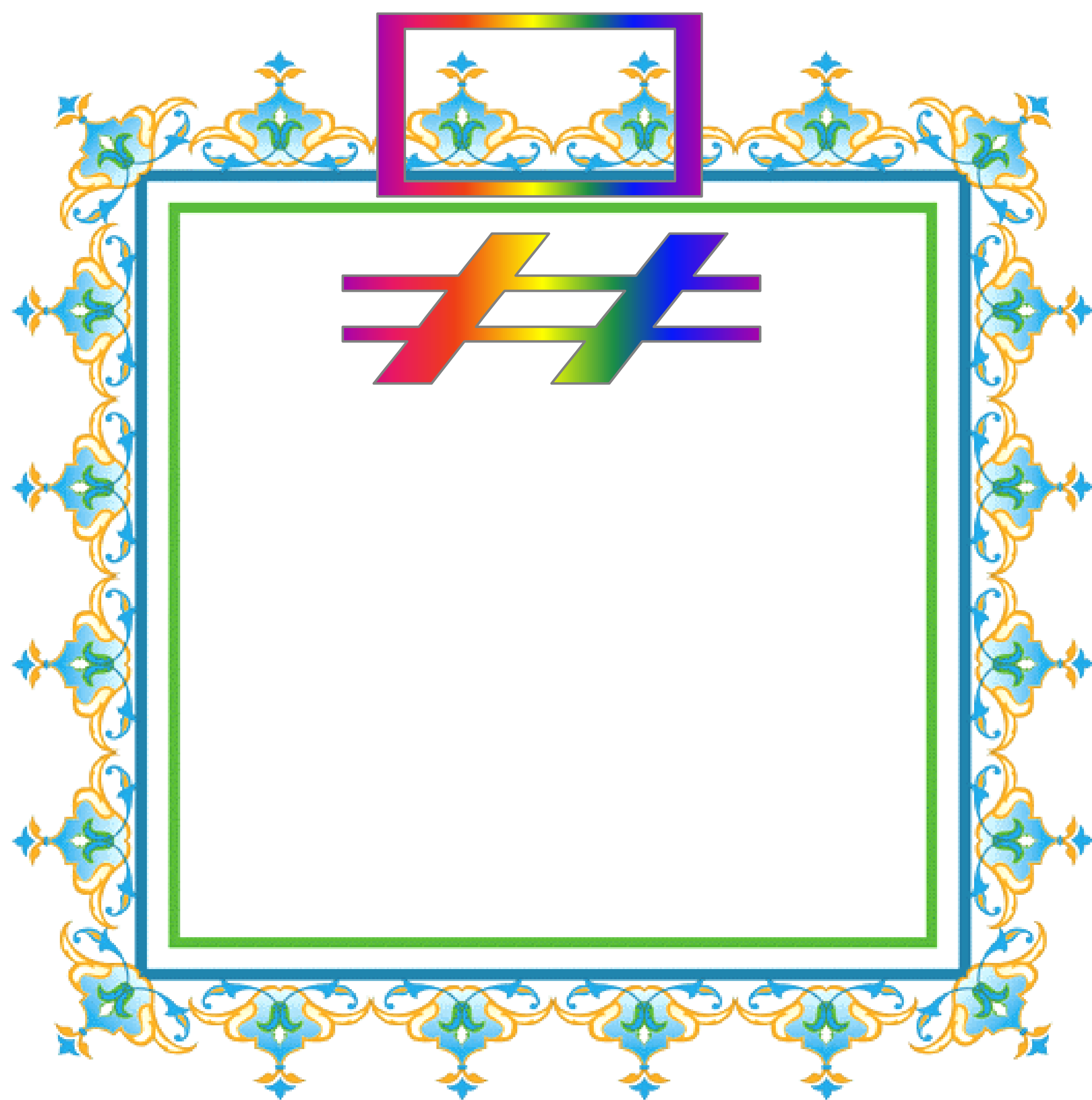
إن ما نلاحظه من خلا ل هذا المقطع القصير الذي استهل به الشاذلي رسالته قبل أن يدخل في تفاصيل موضوعه الرئيسي للرسالة هو تمتعه بثقافة واسعة لذا نجده يختار اللفظ المناسب والمعبر فجاءت بذلك عباراته جيدة السبك وألفاظه مختارة ومنتقاة. وأنت تقرأ هذا المقطع تطير بك الذاكرة لمقامات بديع الزمان الهمداني.

كما كان الشاذلي يضمن رسالته بعضا من الأبيات الشعرية مثلما جاء في رسالته إلى صديقه (بواسوني) دائما. والتي كتبها على لسانه ابنه محمود والذي كان قاضيا في مدينة سطيف وذلك من أجل تهنئته بعيد رأس السنة وبتقلده رتبة جنرال وهذان البيتان هما[1]:

أتاكم هذا العـــام بالعـــز والهنا	ونيل هنيـــآكم وارتقـــاء المناصب
وبالأهل والأولاد قرت عيونكم	وتصرف عن كل وجوه المصائب

وللشاذلي قصائد شعرية جميلة نتحدث عنها لاحقا.

(1) - سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي القسنطيني دراسة من خلال رسائله وشعره. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1972م. ص 97.



شعراء قسنطينة

في

العصر العثماني

شعراء قسنطينة في العصر العثماني:

لو أردنا الحديث عن شعراء قسنطينة خلال العهد العثماني في فصل منفصل عن الكتاب فإننا سوف نجد الأسماء نفسها تتكرر معنا.

إن كل كاتب لم تخل كتاباته من الشعر، فكل كاتب هو شاعر في الوقت نفسه وكل من له كتاب نثري قيم إلى جانبه ديوان شعر غني بالقصائد العصماء كما نذكر بعض المصادر غير أنها لم تأت بها كاملة وإنما فقط تكتفي ببعض النماذج منها:

إن الأغراض التي كتب فيها شعراء العهد العثماني كانت متنوعة فمن مدح إلى رثاء إلى أغراض سياسية إلى شعر صوفي ومنظومات دينية مختلفة بالإضافة إلى الشعر الشعبي الذي كثيرا ما وصف الحياة الاجتماعية للناس.

عبد الكريم بن الفكون:

لم يؤلف عبد الكريم الفكون في النثر فقط بل له أعمال أخرى في التصوف جديرة بالذكر من ذلك قصيدة له في التوسل بالله سماها إصلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل أولها[1]:

بأسمــــائك اللـــهم أبدي توسلا   فحـــقق رجائي يا إلهي تفضلا

ويبدو أنه استعملها كدعاء عند الشدة التي لحقته من بعض البغاة كما أن بعض تلاميذه(وهو محمد وارث الهاروني قد نسخها منه واعتمدها ضد عمه الذي بغى عليه واشتكى إلى الفكون منه ويقول الفكون أن المغاربة أيضا قد استنسخوها منه، فهي شهيرة بينهم ومن جهة أخرى وضع الفكون تقييدا بعد مرض أصابه من قلبه حوالي سنة، فكان بسببه لا ينام، ويتصبب عرقا حتى يئس منه الجميع واختل شطره الأيسر، والغالب على الظن أن هذا التقييد الذي لم يفصح عن محتواه لا يخرج عن شكر الله والتوسل إليه، وللفكون نَظم آخر سماه "شافية الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض"، وهو النظم الذي سماه أيضا "الشدة في عقب الفرج بعد الشدة". وأوله[2]:

بك اللهم مبدي الخلق طرا توسلي   وفي كـــل أزمـــاتي عليك معولي

وهو النوع الأول في التوسل إلى الله بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه التابعين والفقهاء والأولياء.

ولعل أهم عمل كتبه الفكون في هذا الباب هو ديوانه الذي خصصه لمدح الرسول فقد نظم عدة قصائد في هذا المعنى ورتبها على حروف الهجاء مضمنا كل حرف من

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص148.

(2) – المرجع نفسه. ص149.

الحروف حرفا تقرأ من أول كل بيت وأول كل بيت في الحرف وتجمع فخرج منها "اللهم اشفني بجاة محمد، آمين" وهو الديوان الذي رآه العياشي واخبر أن الفكون قد كتب عليه ما عمد به عند الغمة وساعة الغياهب المد لهمة، والتزم فيه أن يجعل مبدأ كل سطر حرفا من حرف "إلهي بحق الممدوح (اشفني، آمين" وقال العياشي أن جملة ذلك خمس وعشرون من كل قصيدة[1].

وقد استهل هذا الديوان: بعد بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم بقوله: يقول كاتبه العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفوه وغفرانه يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد المتمسك بحبل الرجاء من مولاه سبحانه ،عبد الكريم بن محمد بن الفكون أصلح الله حاله ووفق لإتباع سنة المصطفى أقواله وأفعاله، الحمد لله مفرج الكرب ومولى من فضله أعلى الرتب والصلاة والسلام على أفصح العرب المرجو لدفع كل خطب أما بعد: فقد صادفني يد الأكدار في هذه الدار ورمتني بأسقام وأوصاب ولازمتني ذلك في كل أحوالي وكدر قلبي كل صاف ومنعني لذيذ الكرى وحياة النفس من الدرس والقراءة والتفكر والتأمل، وبقيت حيرانا ولهانا فارغا مما يزين المرء من الحلي الأدبية والقراءة ،سواء بعض الشيء مما دعوته لنفسي وردا وزمانا على أنه بجد وكد وفادح مشقة، وقد رمت كل دواء ذكر لي وأطلقت عليه من كتب الأطباء، ما أجد إلى ذلك سبيلا، و لم أزل على ذلك لي وأطلعت ولا جانبتني تلك الأحوال، إلا ما يتزايد وهجها ولعجها، ويكثر همها وغمها وفي ساعة من ساعات زماني يعرض علي غشوات ويتنكد الوالد والأهل واعيا الأطباء ما بي، إلى أن أشار الوالد تغمدني الله وإياه برحمته ولا حرمني من بركته وأجاب في خالص دعوته أن ابتهل إلى الله الطيب حقا، توسل ومدح عسى أن يمن بالشفقة من هذا الداء العضال ويريح عني ما أنا فيه من عظيم الوبال...

ثم بعد أيام عنّ لي أن امتدح جناب عروس المملكة وإكسيرها وياقوتة نحرها سيدنا ومولانا وشفيعنا والمخدوم والأعظـــم المصطفى المختار سيـــدنا محمد صلى الله عليه وسلم

---

(1) - العياشي أبو سالم عبد الله: رحلة العياشي. طبعة فاس المغرب. سنة 1316 هـــ/ 1898م ج2. ص 390.

ما أظلم ليل وأضاء نهار بيت، والتزمت أن أجعل مبدأ كل سطر حرف من حروف -إلهي بحق الممدوح اشفني آمين- إلى أن يقول: "فلما يسر الله في بدء هذا القصيد وجدت لنفسي حقه عما كان وظهرت في بركته... الخ".

وقد التزم في ديوانه هذا أن جعل في كل شطر من نظمه حرفا من حروف "إلهي بحق الممدوح اشفني آمين":

قافية الألف

أبدر بـــدت في الخافقين سعوده	ونورا به الأكوان أضحت تلألؤا
له في العـــلي أعلى العلا رتبه وفي	مراقبي ذوي العرفان قـــدما مبوأ
أضاء وجـــود الكـــائنات ببعثه	وطلعته الغراء من الشمس أضوأ
هو الغيث أحيا الأرض بعد موتها	وخاتم كل الرســـل تمـــت مبدأ
يرى الواء الحمد في الحشر إذ غدا	مكنيا وفي الأهوال للخلق ملجأ
مولـــده للأرض فخرا على الهماء	وحـــق لها بالفـــخر وهو المنبأ[1]

وقد ختم رحمة الله ديوانه بقافية الياء:

أيا باهـــر الأشواق يا غاية المنى	ومن حاز في تشريعه الرتبة العليا
لوجهك يـــا بدر الكمال تلألؤ	وغيث به الأكوان إذ ما بدا تحيا

إلى أن يقول:

(1) - الصيد سليمان: نفع الأزهار ص 25.

نريـــد جـــوار الخلد معك وفي الدنا	فلا تحـــرمني مـــا به مهجتي تحيا
يحقق آمـــالي ويدفـــع كـــربـــتي	مديحك يا مخـــتار أكـــرم به ريا
وأمـــا والذي أحيا بك الكون أنني	ببـــابك راج ما تلـــبثت بي الدنا
ألم يك للمهد جزأ يسره على من له	أهـــدى لشـــرعك ذي الفتـــيا
مواهبك الفـــضلى طلـــبت لمنيتي	جزاء على مدحي وأنعم به البغيا
يا من عظيـــم الجود من يسبح بحره	بتحقيق أمالي كما يكـــرم اللقايا
تثـــاب بنظـــمي رأية الله في غـــد	وسؤلي وما بالبدء من ذي له راية

انتهى الديوان المبارك وهو في مديح المصطفى المليح الفصيح في ليلة الجمعة وقت العشاء منها ليلة الثالثة والعشرين من جمادى الأخيرة من سنة إحدى وثلاثين وألف، عرفنا الله خيره وكفانا شره بجاه رسول الله وأصحابه وأوليائه وأسأله بحرمة المديح والجاه أن يعجل بالشفاء الذي لا سقم معه، ويتحف بالمطلوب وما هو لي فيه مرغوب إنه سميع مجيب مع عقب صالح، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم[1].

محمد النقاوسي:

---

(1) - الصيد سليمان: نفع الأزهار. ص 25.

الأديب محمد بن يحي بن أبي النقاوسي القسنطينـــي، ولد يوم الأربعاء 18 جمادى الثانية سنة 849هــ (تشرين الأول 1444م) بمدينة نقاوس من غربي قسنطينة، وكان والده قاضيا فيها حفظ القرآن واشتغل بالعلم في بلدته ثم دخل قسنطينة طالبا العلم ثم أرتحل إلى تونس فأخذ الفقه من إبراهيم الأخضري والعربية والمعاني والمنطق وأصول الفقه عن (أحمد النخلي ومحمد الواصلي) وبعد وفاة أبيه شخص إلى مصر سنة 899هــ فواصل اشتغاله بالعلم فأخذ عن الشنمي في حاشيته والتقى (الحصني) في المنطق و(الشرواني) في شرح الطوالع، ولا زم علماء آخرين (كالقصرائي ، يحي العلمي ، السخاوي)فاستفاد منهم ونال الفقه والتاريخ والأدب.

أدى فريضة الحج ثم قفل راجعا لكنه لم يلبث أن ارتحل إلي تونس واستقر فيها وصار أحد عدولها[1].

كان يحسن قرض الشعر فأمتدح صاحب تونس (زكريا بن يحي بن مسعود) بعد إخراج (عبد المؤمن بن إبراهيم بن عثمان) عنها وذلك بقصيدة منها هذه الأبيات[2]:

ضحك الربيع وجاء سعد مقبل	ولك الهنا ذهب الزمان الممحل
فارفل فديتـــك في ميدان المنى	هذا لـــواء النصـــر وافي يرفل
وأرح جواد الجد في أثر العدى	فسهام سعدك في الأعادي أنبل

وقد أمتدح زكريا بكثير ولم يطابق الواقع في مدحه غيره شهد له بذلك بعض الفضلاء المغاربة. ولم يمكث على الدوام بالديار التونسية بل انتقل بعياله وجماعته قاصدا

(1)- الطمار محمد: تاريخ الأدب الجزائري. ص 286.

(2) - المرجع نفسه. ص 287.

الحجاز وبطريقه مكث بمصر ثلاثة أشهر ثم أبحر إلى جدة صحبة نائبها ووصل إلى مكة في أثناء رجب.

ولقيَه السخاوي فقال: "دام الشيخ فيها على طريقة حسنة الإجماع والعبادة إلى أن سافر مع المدنيين إلى طيبة فقدمها في أواخر سنة سبع وتسعين وثمانمائة فدام بها ولقيته حينئذ فيها وكتب لي بخطه ما عمله إجابة لصاحبه الخطيب (الوزيري) وأقرأ بعض الطلبة وذكر لي أن عزمه استيطانها"[1].

عبد الرحمن باش تارزي:

(1) - المرجع السابق. ص 288.

لم يكن الشيخ عبد الرحمن باش تارزي كاتبا فحسب وإنما كانت له أيضا قصائد دينية كثيرة جيدة الحبك والأسلوب تدل على تبحره في هذا الميدان وهذه بعض النماذج من قصائده[1]:

صـــل يـــا رب على ذي الخلق … العظيـــم القـــدر نجـــم الأفـــق

يا هيـــل الـــود نـــور الحـــدق … ما يغـــيب طرفكـــم من رمـــق

واصـــلوا قلـــبا كئـــيبا كلـــما … فاح نشـــر ذكـــركم في حفـــق

لا إله إلاّ الله لا إله إلاّ الله … لا إله إلاّ الله محـــمد رســـول الله

يـــا منـــة جســـــم علـــــيل … يـــا منـــة القـــلب المريـــــض

باســـــــــــم الله شـــــــفاه … ذكـــــــــــــــــــر الله أدواه

ارحـــم تضـــرعا بمصطفاك الذي … صلى علـــيه الله العرش في الأزل

بمحض فضلك نرجو منك يا أملي … إذا لحـــنا جـــراذ الروح تغفر لي

وإن تبـــشرني رضـــاك عـــني إذا … قبضتها والســـلام منـــك للرسل

مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي:

---

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 79.

للشيخ مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي عدة قصائد ومنظومات دينية متفرقة تدل على مهارته في هذا المجال، لكن للأسف لم أجد منها سوى هذه القصيدة التي قالها في مدح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين مدينة الجزائر، ذكرها الأستاذ سليمان الصيد في كتابه نفح الأزهار[1]:

قــف بالضريح ضريح مجلى الدان	شيــخ الطــريقة عبــد الرحمــن
بحــر الفضــائل والفواضل والوفا	نــور البصــائر نزهــة الأعيــان
علم الهدى مــزن المعارف والندا	تنبيك عنك الجــواهر الحــسان
عــدت له في العلــمين منــاقب	جلت فلا تنسى مــدى الأزمــان
في أفــق العلــياء يصــطع نوره	فمــا لــه في عصــره من ثــان
غوث الــورى للنــائبات مفرج	وهو الصــريح للهــيف الجــان
مجلي الصــدى عن كل لب أمه	نور يضـــيئ دجــنة الأحــزان
حاز المكــارم والفــوائد وانتهى	لأقــاصي الضــمار والميــدان
ورع صبـــور زاهــد متــأرز	بمكارم أعيــت ذوي الإحســان
قدما أضــاء الكــون ثاقب نوره	جمعت لــديه شتــايت العــرفان
فقد ارتــقى في أوج كل فضــيلة	ونائي عن البــرجيــس والكيسان
وبه استنار الكون من كل جانب	فهــو المنــى وغــاية الأمــان
بشرى لرمس ضــمه وثــوى به	حفــت علــيه لطــائف المنــان
بالله لــذ بضــريحــه متـــذللا	متــوسلا في الســر والإعــلان
وقــل أيــا قطب الورى يا ثعالبي	يا غوث يا مأوى الكســير الفان
إني ببــابك واقــف مســتعطف	عطــفا عليّ يــا عــابد الرحمن
كلا مددت فمــا علــيك الله قد	ألقــاه من علــم ومن عــرفان
فبــحزبه والصالحــين جمــيعهم	أدم عليّ ســوابــغ الإحســان

(1) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص ص 108- 109.

مقـــبل ضــــريحكـــم وطـــالب مددكـــم إبن عبــــد الرحمـــــــن

دامــــت علـــيكم من الإله تحـــية ما ماس حـــاد العيس بالألحـــان

بجـــاه ســـر الكـــون أفضل خلقه صـــلى علـــيه الله في كـــل آن

وصف المنشآت العمرانية:

رغم قلة وصف المنشآت العمرانية والمدنية في العهد العثماني فإن الشعراء قد مجدوا المؤسسات التي أقامها بعض الولاة ويدل ذلك على أن الشعر كان مستعدا للتنويه بالعاملين لنشر العلم والعمران.

وقد حظيت المنشآت التي أقامها "صالح باي" بتنويه الشعراء فالمدارس والمساجد ونحوها اعتبرها الشعراء دليلا على اهتمام الولاة بالشعب والصالح العام، رغم أن "صالح باي" كان يعمل دون أن يقرّب فئة الشعراء منه.

ورغم ذلك فإن أحد الشعراء المجهولين قد كتب قطعة نقشت على اللوحة التي وضعت عند مدخل المدرسة المعروفة بالمدرسة الكتانية أو مدرسة سيدي الكتاني التي أمر صالح باي ببنائها، وفي القصيدة مدح للباي أيضا[1]:

طاب الزمـــان بمـــن يـــوالي نفعه	للمســـــلمين وزاد في علـــــياه
ملـــك يؤم الصالحـــات بعـــد له	فاخـــــتار آخـــرته على دنـــياه
أحيى دروس العـــلم بعد اندراسها	وبني لـــها دارا زكـــى مبـــناها
يعني مدرسة لاحـــت أشعة نورها	لمَ لا وهي الـــــدر في معـــــناه
فـــالله يرزقـــه السعـــادة دائـــما	وينـــيله يـــوم القيـــــامة منـــاه
قـــد بين التـــاريخ في قـــول لنا	فخـــر المـــــجاهد بالهـــنا مبناه

ومن الواضح أن هذا الشعر "تسجيلي" وليس عاطفيا وأن صاحبه قاله لينقش على جدار لا لكي يتذوقه الناس ويحفظوه، ومع ذلك ذكرناه لنؤكد على أن الشعراء كانوا يهتمون لكل ما فيه الخير وصلاح البلاد ومن هذا الشعر التسجيلي أيضا الأبيات التي نقشت

(1) - سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر. ص 238.

على القصر الذي بناه "الحاج أحمد" آخر بايات قسنطينة وهو فصر عظيم، قل نظيره في وقته، ولكن وصفه بقول قائل[1]:

لمالــكه السعــادة والســــلامة	وطــول العمــر ما سجع حمامه
وعــزّ لا يخــــالطــه هــــوان	وأفــراح إلى يــوم القيــــامة

لا يدل على فضله ولا يعطي الصورة الحقيقية عنه، بل إن الزمن لم يمهل "الحاج أحمد" ليتمتع بقصره، فقد أخرجه منه الفرنسيون وحاربوه وتغلبوا عليه.

وشبيه بهذا ما وجد منقوشا أيضا على لوحة مرمرية على مدخل جامع سوق الغزل بقسنطينة، فقد بنى **"عباس بن جلول"** أحد كتاب حكومة **"الباي حسين بوكمية"** هذا الجامع، ويقال أن الباي قد غار من هذا العمل، فاشترط على كاتبه أن يكون الجامع مشتركا بينهما، ومهما كان الأمر فإن الأبيات تسجيلية أيضا ولعلها من صنع بعض الفقهاء[2]:

غــرف المــحامد أم قصور تعبد	أم جنــة الرضــوان للمتــجهد
أم جامع جمــع المحــاسن فانثنت	في جيــد متــشبه أعــز مقــلد
بيت يقــام بها عمــاد الدين في	ظــل امتــثال للإلــه الأوحــد
كالشمس إلاّ أن تلك إلى الأفول	وهــذه في الــــبرذات تخـــلد
وسعت بما وسعــت يدا حين ذا	حكــمة بهــا للراكــعين السجد
يرجو بها من بســبل الستر المذال	على العصــاة إذا أتــوه في غــد
يا خير من يــرجى لكــل مؤمل	أوله في الــدارين أســعد مقصد
ولئن تســل تاريخــه فــأتى به	بأي الزمــان حســين بن محــمد

---

(1) - سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر. ص 238.

(2) – المرجع نفسه. ص 239.

الحنين والشكوى:

عاطفة الحنين إلى الوطن عاطفة قديمة في الإنسان ولكن الشعراء جعلوا منها أحيانا عاطفة وطنية في عصر ليس هو عصر القوميات، وقد كان الوطن عند بعض الشعراء القدماء هو مربع القبيلة ومرتع الصبا، ثم صار عند المتأخرين منهم هو البلد الذي فيه قوم الشاعر وتحده حدود سياسية، ويرفرف عليه عَلَمُ ذلك البلد ورمزه، ونحن حين نود أن نتحدث عن الحنين إلى الوطن عند الشعراء الجزائريين في العهد العثماني فإننا نتحدث عن هذه العاطفة التي تقف بين الحنين إلى الوطن القبيلة وموطن العلم والقوم والشيوخ الذين درّسوا عليهم والطبيعة التي شكلت طباعهم وأذواقهم، ثم وسعوا هذا الموضوع الضيق فأصبح يشمل في نوع من الغموض مع ذلك القطر الجزائري بأسره، وكان الكُتاب والشعراء ينسبون أنفسهم خارج قطرهم للجزائر، وبدأت تختفي تدريجيا عبارة التلمساني والقسنطيني والزواوي والعنابي وغيرها، وعن الغربة والحنين والشوق إلى الديار قال "محمد بن أحمد الكماد" لما كان في تطوان، وشعر بالغربة والترحُل من المقام اللائق به(1):

لهف نفسي على كسوف	شمس العلوم وذلة الغرباء
لهف نفسي على زمان عبوس	قمطرير ذي قسمة ضيراء
فأنا للعلى سموت وحزت	رتبة لاتسام الجوزاء
وورثت العلوم قد ما يقينا	عن أباء قساور نجباء

الشعر الشعبي:

(1) - سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر. ص240.

خاض الشعر الشعبي عددا من الأغراض، هجومات الأجانب علي الجزائر والانتصارات عليهم حالة السكان الاقتصادية والمعاشية والأزمات الإقتصادية والنكبات الطبيعية، أحوال التصوف والمتصوفين. رثاء رجال السياسة ورجال الدين ونحو ذلك من الأغراض.

فللشاعر بلقاسم الرحموني الحداد قصيدة صورت أحوال قسنطينة عموما فهي لم تكن سياسيا كلها كما أنها لم تكن ضد العثمانين بل كانت ضد الدخلاء على مدينة قسنطينة مهما كانوا، فقد صور في قصيدته الحياة الاجتماعية من فساد أخلاق ودين والحياة السياسية من ظلم وطغيان، والحياة الاقتصادية من نقص في أحوال المعيشة والغلاء، وكان الشاعر في هذه القصيدة يتكلم على لسان أهل الطرق الصوفية، وهو أيضا ضد التجار الذين وردوا على قسنطينة ونافسوا أهلها ويبدأ هذه القصيدة بقوله[1]:

عـــام مكـــبرة هـــاي سيـــدي	بالكســـاد وغـــــلات النـــعما
كيـــف نخـــبر هـــاي سيـــدي	بالفســـاد في كمـــان حــــوما
بـــاح كـــل شـــي بلا كتـــما	في بلـــدة قسنـــطينة الـــدهمـــا

واش تنـــظر هاي سيدي

واش تنـــظر فيـــها هلـــكـــت	راهـــــــــي فســــــــــدت

ما بقـــات تسما بلدة

كذلك قوله[2]:

الأسعـــار راه أغـــلات وحـــتى	أمطـــار الصيــــــف أدفـــاقـــوا
الحـــرث راه أصـــعب نبـــــته	اليبـــس والحجـــر يكـــــــــثروا

محمد الشاذلي:

(1) - سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر. ص 240.

(2) - سعيدوني ناصر الدين: ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والإنتفاضة الشعبية. مجلة الثقافة. العدد 78. 1983م. ص 222.

نعود مرة ثانية في هذا الفصل للحديث عن محمد الشاذلي القسنطني لكن هذه المرة عن شعره وشاعريته يقول محمد الحفناوي في ترجمته أنه كان "كثير الإطلاع حاد الفكر قوي العارضة له أشعار رقيقة"، ويضيف بأن للشاذلي الأشعار التي ساجل بها الأمير عبد القادر أثناء إقامتهما بفرنسا وانه له "عدة قصائد في مواضيع جمة"(1)، هذا لأنه كان كثير الصلات ذكيا متعدد الأغراض الشعرية له ديوان مجموع غير مطبوع ففي أخر سنة *1846*م، ظهر في قسنطينة تقويم بعنوان "هدية الأخوان في موافقة التاريخية وتوقيعات الزمان وفوائد متفرقة لها شأن" بإشراف صالح العنتري، هذا الأخير الذي كما ذكرنا عنه فيما سبق كان كاتبا في إدارة الشؤون العربية في قسنطينة طبعا، والتقويم عبارة عن كتيب موجه إلى المواطنين الجزائريين ضمنه المؤلف بوحي من بواسوني دائما معلومات عامة عن الحضارة الحديثة كطبع الجرائد ومقياس الزمن والسكة الحديدية ودروسا في الفرنسية ،كما تضمن هذا التقويم إشعارا للشاذلي بلغت ست قصائد هي:

1- في مدح قسنطينة (مترجمة إلى الفرنسية).
2- في مدح الدوق دونال سنة *1844* م.
3- في مدحه أيضا سنة *1846* م.
4- في مدح السيد سالفندي (وزير المعارف).
5- في مدح بيجو ودماس.
6- في مدح باريس وأهلها.

وسنذكر مقطعا من كل قصيدة فيما يلي :

---

(1) - الحفناوي: تعريف الخلف... ص 394.

قال الشاذلي في الدوق دومال عندما كان مغادرا قسنطينة سنة 1844 بعد أن كان حاكما عليها[1]:

دعـــت لكـــم كـــل الرعية بالمنى	لســـيركم فيـــها بسير أولي الخير
وبالعدل والإحسان مع ردع ظالم	يريد به أخـــذ الحقـــوق بلا فكر
كأنكـــم شمـــس أضاءت بأرضنا	بعيد ظـــلام ثم غابـــت على إثر
دها الناس خطب عنه غيبة شمسهم	وكل يود أن يضـــئ على الفـــور

ثم يعود الشاذلي لمدح الدوق "دومال" مرة ثانية سنة 1848 عندما زار قسنطينة فيري فيه البدر الذي اختفي النور برحيله وعودته بزيارته مرة أخرى وكيف أن النوم فارق جفنيه بغيبته وأن عدله أثناء حكمه لقسنطينة قد ناله الحد البعيد فقال[2]:

قـــدوم جمـــيل لا يفـــارقه السعد	ويصحبه التعظيم والعز والرشـــد
طلـــعتم كبدر الأفق من بعد غيبة	وأنتـــم بدور العز أنتم لنا القصد
لغـــيبتكم قد فـــارق الجفن نومه	وصـــار قدى فيه كجفن به رمد
وكيـــف وفيكـــم للرعايا منافع	بها تشكرون الدهر ليس لها جحد
صنـــعتم جميلا وقت تقليد أمرها	بعد لكـــم إذ نالـــه الحر والعـــبد

وفي ختام القصيدة نجد الشاذلي يفخر بشعره ويجعل نفسه (فريدا) في هذا الميدان إذ يقول:

وقـــائلها يرجـــو المـــودة منكم	وفي مدحكم بالشعر كان هو الفرد

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي دراسته من خلال رسائله وشعره، ص 101.

(2) - المرجع نفسه ص 105.

أما عن قصيدته في مدح باريس وأهلها، فقد شد انتباه الشاذلي نهر "السين" الذي يشق البلاد، كما أعجب بعلومهم وصناعتهم وإحسانهم للضيف فقال[1]:

(بـــريـــز) عجـــيب فيه نهر يشقه	وسلطانه في الجود والعدل أعجب
وأهـــله في فهـــم العـــلوم غريبة	وأمرهم في الحرب والصنع أغرب
وإحسانهم للضـــيف والله غـــاية	ذكور كذا الأنثى شباب وأشيب
ولمـــا رأوا نهـــرا يشـــق بلادهم	جروا مثله جودا وهم منه أعذب

وسيتشهد الشاذلي على قوله ومدحه لباريس وأهلها بسلطان تونس أحمد باي (1837م-1850م) وإبراهيم بن محمد والي مصر لأن هذين الاثنين زارا باريس فيقول[2]:

ومن لم يصـــدق ما ذكرته يسألن	رجـــالا رأوه ليـــس عنهم يعزب
وأعظمهم سلطان تونس _(أحمد)	حميد الخصال للمفـــاخر تجـــلب
كذلك (إبراهيم) ذو المجد والندى	خليفة مصر من بســـيفه يرهـــب
فإنهـــم قد شاهـــدوا وتعـــجبوا	وهم لكمال العقل ومن غير أعجب

(1) - سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي دراسته من خلال رسائله وشعره. ص 103.

(2) - المرجع نفسه. ص 104.

كما مدح الشاذلي الجنرال بيجو الذي تولى شؤون الجزائر (1840م-1847م) رغم أن لهذا الجنرال في ذاكرة الجزائريين ملفا أسودا بسب الجرائم التي ارتكبها في حق الشعب الجزائري ولعل ما جعل الشاذلي يمدحه هو قربة من الإدارة الفرنسية بحكم وظيفته الحكومية قال الشاذلي[1]:

لقـــد ظفرت أرض الجـــزائر بالمنا	وبالعدل والإحسان مع علو القدر
وعلى يـــد من ولاه ربي أمـــرها	وأعطـــاه تدبير الحروب مع النصر
ومن أوجب الإحسان للناس كلهم	على نفسه من غير ظلم ولا جور
ومن نبـــغي وسم الذي قد وصفته	(بيج) صـــاحب العـــز والفـــخر

أما عن قصيدته في مدح قسنـــطينة فسنوردها كاملة كما جاءت في كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله "محمد الشاذلي القسنطني"، فقد صورت جمال المدينة وموقعها وهواءها وذكرت أنها مدينة العلم ووجهة العلماء ثم كيف أندرس بها العلم وانطفأ نوره وهو يري أن العلم سوف يحيا بها مرة أخري ويرجع كما كان من قبل فيقول[2]:

قسنـــطينة الغـــراء فزت ببهـــجة	وعـــز على كل البـــلاد ورفعـــة
كأنك فوق الكهف سلطان قد علا	سرير عزيز الملك وهو ذو سطوة
هواؤك يـــا تاج البـــلاد وعـــزها	دواء ذوي الأســـقام من كل علة
كأنـــك أم للغـــريب فكـــل من	أتاك منـــهم نـــال أكـــمل عزة
وكـــم عالم قد حل فيـــك وعلمه	عـــلا كل نجـــم بل غلا كل درة
يدرس في كـــل العلـــوم موضحا	لكـــل عويص من مسايل حكمة
وكم صـــالح يبكي المـــريد بوعظه	ويشفي من الأسقام في كل لحظة

(1) - سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي دراسته من خلال رسائله وشعره. ص 109.

(2) - المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

صئـــووم قؤوم ذو بكـــاء لخوفه	من الله ذو ذكر له كـــل ســـاعة
كأن لم يكف فيها درس لدرسها	و لم يجلس للتدريس كل ذي فطنه
رماهم صرف الدهر لم يخط سمهه	ومـــاتت بهـــم كل العلوم بسرعة
وذي سنـــة في الخلق حكمة ربنا	قضـــي كل شـــيء كائن بمشيئة
حييت بمـــاء سلسبيل وقد غـــدا	بنوك به في ربي من بعـــد غـــلة
وصرت له كوزا لمن يشاء يرتضع	وسوف يعم النـــفع كـــل الأزقة
ستـــحيي بإحياء العلـــوم ودرسها	وجعـــل محل للـــدروس العظيمة
ويحـــصل كـــل العز للناس والهناء	وفخرك يـــا حسنا على كل بلدة
وعلى يـــد ولاه أمـــرك ربنـــــا	وأعـــطاه تدبيـــرا لكـــل مهمة
يحب صلاح الناس دون فســـادهم	ويـــأمرهم بالخيـــر في كل بقعة
ليهناك العـــام الجديد ومـــا غير	وتأتيـــك بالأفراح من كل وجهة

كما أن للشاذلي قصيدة سياسة في الأمير عبد القادر كتبها إليه عندما كان في أوج سلطانه وقوته يحمي ملة الإسلام ويحارب نار الكفر بجيشه العتيد وجنوده الأبطال حيث نعته بالخليفة فقال[1]:

وبلـــغ له شكـــوى قسنطينة بمـــا	يســـوء ذوي الأحلام والله يشهد
وذلـــك أن الكـــفر حل بها وفي	عمـــالتها من كل أرجائها يبدو
تري أهـــل دين الله حقـــا أذلـــة	وذو الكـــفر في عز وللحق يجحد

صاح الشاذلي بهذه الاستغاثة على لسان أهل قسنطينة مستنجدا بالأمير عبد القادر لأنه أصبح الحامي للدين الإسلامي والمسلمين في الجزائر بعد الانتصارات التي حققها في الغرب الجزائري مع جنوده الشجعان فمدحه الشاذلي ووصفه بأوصاف التمجيد والشرف

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي دراسته من خلال رسائله وشعره، ص 109.

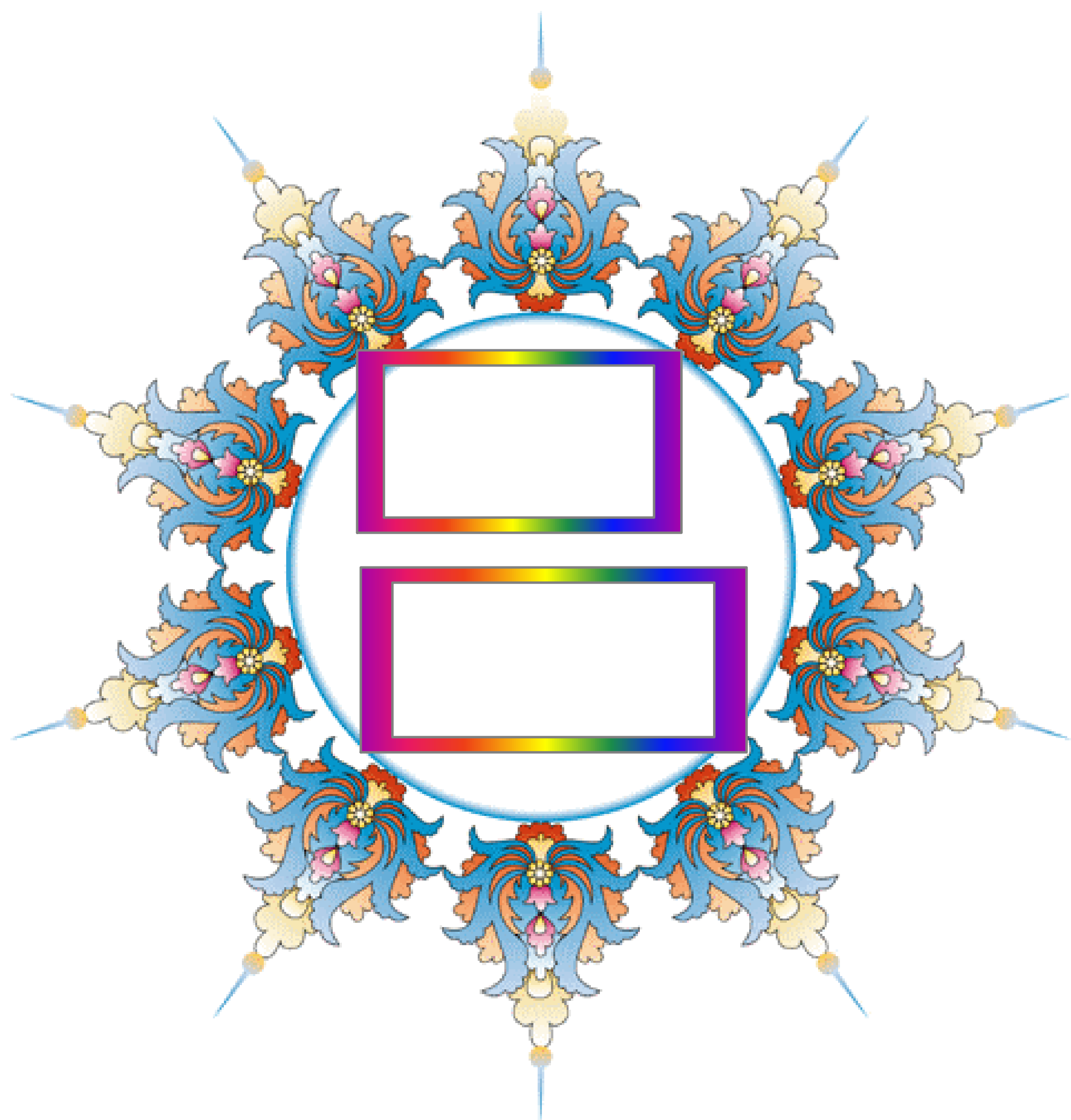
والأخلاق والعلم والورع والشجاعة كما مدح جيشه بالقوة والأقدام والغيرة على الدين فقال:

وكيف وسيف الله بالغرب مصلت	لضرب رقاب الكفر والدين ينجد
خليـــفة أحي الدين من بعد موته	وأخْـــمد نار الكـــفر ذاك المؤيد
حمى ملـــة الإســـلام ممـــا يشوبها	بماضي من العـــزم القـــويم يهـــند
ورأي ســـديد ثم عـــلم وعـــفة	وجـــود من استجداه لاشك يرفد

أما عن جيشه فقال:

وجيـــش كأمثـــال الجبال وفتية	لدى الطعن للكفار والضرب تحمد
تـــراه إذا ما الحرب شدت أزارها	حكـــى ليـــث غاب عنه لا يتردد
محـــاسنة شيء ولكـــن جمـــعها	عليّ عســـير فهو للحـــسن مفرد

وفي الأخير ما يمكن ملاحظته على شعر الشاذلي هو أنه عامة شعر مناسبات تغلب عليه الروح التقريرية والفقهية وهذا راجع لكونه رجل قضاء وفقيه عارف بأصول الدين فهو إذن من الشعراء الذين يجمعون بين الدين والعلم ، ومع ذلك فهو كثير الشعر متعدد الموضوعات والأغراض ويمكن أن نلخص أن شعره ينحصر في مجال الإخوانيات (مدح، رثاء، ومداعبة ،.... الخ)، أما عن أسلوبه فهو يمتاز بالبساطة وسهولة الألفاظ وسيطرة الروح التقليدية، كما يوجد في أشعار بعض الخلل العروضي كما أنه لا يلتزم بالقافية الواحدة في القصيدة وهذا ما رأيناه سابقا.



أهم المميزات الفنية للأدب القسنطيني في العهد العثماني


أولاً
النَثر

النثر:

حاولت في هذا الفصل أن أقف وقفة فنية ولو بسيطة مع أدب قسنطينة في الفترة العثمانية رغم قلة النصوص الأدبية التي عثرت عليها، وعلى قلتها فهي تتنوع بين نثر وشعر. فالنثر تمثل في مجموعة من الكتب أبدع فيها أصحابها من خلال قضايا مختلفة كان اغلبها محققا من طرف أساتذة كبار، اهتموا بها وبقضاياها فنفضوا عنها الغبار وأخرجوها في حلل تليق بها وقدموها للقراء في صورة بديعة يمكن الاستفادة منها ويجد فيها الباحث ضالته فتشفي غليله وحب تطلعه بالإضافة إلى الكتب هناك مجموعة من الرسائل هذه الأخيرة التي سنحاول الوقوف عند بعضها أو بالأحرى عندما وفقنا أو استطعنا الحصول عليه كرسالة ابن الفكون للمقري ، ورسائل محمد الشاذلي القسنطيني كذلك رسالة عمر الوزان التي أرسلها إلى حسن آغا والي الجزائر وخليفة خير الدين باشا.

أما عن الشعر فسوف أسلط الضوء على مجموعة من الأشعار من خلال الوزن والقافية والموسيقى وكذلك الصورة الشعرية بالإضافة إلى لغة القصيدة وعباراتها وكل ما يتعلق بها.

وأول ما نبدأ به هو النثر وقبل أن نشرع في التحليل نعرج قليلا ونقف وقفة قصيرة أمام مصطلح النثر وتعريفه.

يقسم ابن البنا الأدب إلى قسمين شعر ونثر، فيقول: "وينقسم القول إلى موزون ومقفى وهو المنظوم ، وإلى غير ذلك وهو المنثور ويستعمل كل واحد منهما في المخاطبات"[(1)].

ولا نجد هذا التعريف عند ابن البنا فقط بل يشاركه الرأي في ذلك ابن خلدون أيضا. فيقول: "وهو (الشعر)، الكلام الموزون، المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون"[(2)].

---

(1) - ابن البنا المراكشي العددي: الروض المريع في صناعة البديع. تحقيق رضوان بن شقرون. دار النشر المغربية. الدار البيضاء 1985.ص 81.

(2) - ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون. ط2. تحقيق عبد الواحد وافي. لجنة البيان العربي. 1967م. ج4. ص 1405.

إن الملاحظ هنا من خلال هذين التعريفين أن ابن البنا وابن خلدون يتفقان كل الاتفاق حول مفهوم النثر، إذ أن الشعر في رأيهما هو القول أو الكلام الموزون المقفى وما تبقى فهو النثر.

هذا عن تعريف النثر أما عن أقسامه فيقول ابن خلدون: "وأما النثر فمنه المسجع الذي يؤتى به قطعا، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا، ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقا ولا يقطّع أجزاء بل يرسل إرسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها"[(1)].

من خلال هذا التقسيم لابن خلدون نستنتج أن القدماء تناولوا اللفظ وصورة التعبير، وبمعنى أوضح أن النثر من هذه الناحية ينقسم إلى مرسل ومسجع.

ثم يستمر ابن خلدون في حديثه عن النثر حتى يورد لنا المجالات التي يستخدم فيها النثر فيقول: " ويستعمل النثر في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور، وترهيبهم... وأعلم أن لكل واحد من هذه الفنون... أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات، و أمثال ذلك"[(2)].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن ابن خلدون يقصد بلفظ المخاطبات ما نسميه اليوم بالرسائل.

والرسائل كما هو معروف تنقسم إلى قسمين أو نوعين رسائل رسمية (ديوانية) وأخرى أدبية (إخوانية).

والرسالة هي: "ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا فيه عن شؤون خاصة أو عامة، وينطلق فيها الكاتب عادة على سجيته بلا تصنع أو تأنق وقد يتوخى حينا البلاغة والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع"[(3)].

---

(1) - ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. الجزء4 ص *1405*.

(2) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - جبور عبد النور: المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. الطبعة الأولى. بيروت. *1979*م. ص *122*.

أما عن العامل الأساسي الأهم والذي كان وراء نشأة أدب الرسائل وتطوره تطورا كبيرا إنما هو الإسلام وما جاء معه من فتوحات إسلامية لأقطار عربية وأعجمية، هذه الفتوحات التي لعبت دورا كبيرا وفعالا في إحداث تطورات في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

فمن رسائل النبي ($) إلى أولي الأمر في الداخل والخارج إلى رسائل خلفائه من بعده وكتّابهم الذين استخدموهم في الكتابة من أجل تسيير أمور المسلمين وحياتهم.
وسارت الأمور هكذا إلى أن أسس الأمويون ديوان الرسائل من ضمن الدواوين الأخرى في عهد معاوية بن سفيان[1]، ومنه فقد أصبح للرسائل قيمة كبيرة في المجتمع الإسلامي ولاسيما الرسمية منها، وهذا طبعا لدورها المهم في تنظيم الحياة الدينية والدنيوية للمسلمين.

لذا لابد أن نقف أمام مفهوم أو تعريف الرسالة الرسمية فنجد أبا هلال العسكري يقول عن تلك الرسائل "الرسمية": "وأعلم أن الرسائل، والخطب متشاكلتان، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة... وهما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة أنهما مختصان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار"[2].
وما نلاحظه من خلال هذا التعريف أنه يتضمن أيضا الغرض أو المقصود من تلك الرسلئل، والوظيفة التي جاءت من أجلها.

هذا عن الرسائل الرسمية أما عن الرسائل الإخوانية فهي عادة تكون بين الأهل والأصدقاء والأحباب وتعالج أمورا خاصة ويختلف أسلوبها تماما عن أسلوب الرسائل الرسمية.
ورغم قلة مجموع الرسائل المتوفرة لدينا حيث تحتوي دراستنا على رسالة لعمر الوزان وأخرى لابن الفكون ومجموعة أخرى تتكون من ثمان رسائل للقاضي الأديب محمد الشاذلي القسنطيني، فإننا بحول الله سوف نحاول الغوص في مضامين هذه الرسائل وتوضيح فنياتها.

---

(1) - حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي. الطبعة الأولى طبع دار النهضة العربية بيروت 1982م ص43.

(2) - العسكري أبو هلال: كتاب الصناعيين الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (ط1): دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. 1952م. ص 136.

إن الدراسة الفنية للرسائل الرسمية والأدبية في هيكلها أو بنيتها النموذجية تتشكل عادة من:

- البسملة والتصلية على النبي وعلى آله وصحبه
- ذكر المرسل والمرسل إليه.
- التحية والدعاء للمرسل إليه.
- موضوع الرسالة.
- ذكر مكان وتاريخ الرسالة.

لكن قد تختلف هذه البنية في الرسائل من وقت لآخر أو من عصر لآخر ، فقد كنا نجد في رسائل الأقدمين مثلا في عهد النبي ($) حين يرسل رسله إلى أصقاع العالم من أجل نشر دعوة الإسلام يقول في مقدمتها مثلا "من رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس..."، كما نجد هذه الصيغة أيضا عند خلفائه من بعده، وما نلاحظه في هذه الرسائل أو هذه المقدمات في الرسائل أنها تبتدئ بعد البسملة مباشرة بذكر المرسل والمرسل إليه ثم التطرق إلى الموضوع بعد الدعاء لأحدهما أو لكليهما.

أما عن رسائل العهد العثماني ومن خلال النماذج القليلة الموجودة عندنا فنلاحظ غير ما سبق حيث أنها لا تحتوي على مقدمات أو افتتاحيات الرسائل القديمة. فرسالة عمر الوزان بدأها مباشرة بعد البسملة بالتصلية على رسول الله وعلى آله وصحبه ثم أفشى السلام، ودعا للمرسل والمرسل إليه دون أن يذكر اسم أحدهما؛ فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا بعد السلام عليكم ورحمة الله اعلموا حفظكم الله تعالى، وشرح صدري وصدركم ، وأخذ بناصيتي وناصيتكم إلى ما فيه الخير والسداد، والصلاح ورضاه ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم"[1].

(1) - بن علي شغيب محمد المهدي: أم الحواضر. ص 135.

أما عن رسالة ابن الفكون التي بعث بها إلى صديقه المقري فقد افتتحها هو أيضا بالبسملة والصلاة على النبي الكريم، ثم ذكر اسمه وهو المرسل بعد وصف نفسه بأوصاف عديدة ثم ذكر اسم المرسل إليه بعد أن وصفه هو الآخر بأوصاف كريمة ونبيلة فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن: (وإنك لعلى خلق عظيم) وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم، من مدنس الإزار، المتسربل بسارابيل الخطايا والأوزار الراجي للتنصل منه رحمة العزيز الغفار، عبد الله – سبحانه- عبد الكريم بن محمد الفكون أصلح الله بالتقوى حاله، وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله، إلى الشيخ الشهير، الصدر التحرير، ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير، الأحب في الله المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقري، أحمد الله عاقبتي وعاقبته وأسبل على الجميع عافيته"[1].
كما نلاحظ أنه ختم هذه البداية أو هذه الافتتاحية بالدعاء لنفسه ولصديقه.

أما رسائل الشاذلي كانت أغلبها تبدأ بعبارة " الحمد لله ولا حوله ولا قوة إلا بالله".
ثم يبدأ مباشرة بالدعاء إلى المرسل إليه فيقول في رسالة بعث بها إلى وزير الحربية الفرنسي الذي أهداه نسخة من كتاب ابن خلدون :"حضرة الفاضل المعظم ، والسيد المبجل المكرم ، ذي العقل الراسخ ، والتدبير الشامخ ، محب الخير وأهله، وقايد الناس بقوله وفعله، سعادة وزير الحرب، صانه الله ورعاه، وكان له ومن كل شر حماه السلام عليكم، وعلى من شملته حضرتكم"[2].
وهكذا في جميع رسائله فالدعاء للمرسل إليه هي الخاصية المميزة في جميع رسائل الشاذلي قبل التطرق إلى موضوع الرسالة وصلبها وكأنه بذلك يحاول تحريك عواطف المرسل إليه واستمالته إليه.

والشيء نفسه نلاحظه في رسالته التي بعث بها إلى صديقه **"بواسوني"** سنة *1850*م حيث يقول: "وعلى الحبيب الأديب، الأقرب إلينا من كل قريب صفيناه وخالص ودنا

(*1*) - المقري: نفح الطيب...ج2. ص *480*.

(*2*) - سعد الله أبو القاسم : القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، دراسة ونصوص المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر *1985*.ص *93*.

السيد القبطان بواسوني، صانه الله ورعاه، ومن كل بلاء حماه، آمين، السلام ولطائف التحيات والإكرام يعمكم ومن شملته حضرتكم"[1].

(1) - سعد الله أبو القاسم: القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني. دراسة ونصوص. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1985. ص 97.

صيغ الانتقال إلى أغراض الرسالة:

إن التخلص من المطالع والافتتاحيات والانتقال إلى الغرض المقصود من الرسالة يتمثل في ألفاظ وتعابير خاصة، وتكون في بعض الرسائل مقرونة بالدعاء مثل ما جاء في رسالة الوزان حين قال: "بعد السلام ورحمة الله أعلموا حفظكم الله تعالى وشرح صدري وصدركم، وأخذ بناصيتي وناصيتكم إلى ما فيه الخير والسداد والصلاح، ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم"[1].

أما ما نجده في رسائل الشاذلي فهو عبارة "أما بعد" أو "وبعد" وهي العبارة أو الكلمة الوحيدة التي اعتمدها الشاذلي في جميع سائله، كعبارة للتخلص من المقدمة والدخول في طلب موضوع الرسالة، والكلمة نفسها نجدها في رسالة ابن الفكون لصديقه المقري.

---

(1) - ابن شغيب: أم الحواضر. ص 135.

خواتمها:

أما الختام فيكون في الغالب بلفظ "السلام" أو بتعبير "رحمة الله وبركاته" وذلك كما ختم الوزان رسالته بتحية الإسلام كاملة؛ قائلا: "والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".

أما ختام رسالة ابن الفكون المقري فكان مختلفا عن ذلك فقد صلى وسلم على النبي الكريم خاتم النبيين والمرسلين، كما أنه أرخ لرسالته باليوم والشهر والسنة فقال: "وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب بغاية عجلة، يوم السبت سابع أو ثامن رجب، من عام ثمانية وثلاثين وألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام"[1].

أما فيما يخص خواتم رسائل الشاذلي وكيف كانت فقد عمد في أغلبها إن لم نقل جلها بالسلام بعد الدعاء للمرسل إليه ثم ذكر اسمه (أي المرسل) فنجده في ختام رسالة بعث بها إلى "الماريشال بوجو" * يشكره فيها على هدية أهداها إياه ، ويسلم فيها على ترجمانه "ليون روش"؛ فيقول: " الله يدوم أيامكم علينا وسلام على صحبنا الفقيه الترجمان المارشال الروش كثيرا سلام. وكل سلام يتبعه ألف سلام". كتب محبكم الشاذلي"[3].

كما نجده أرخ لبعض الرسائل مثلما جاء في رسالته إلى السيد "بلونديل" يهنئه فيها بالعام الجديد فيقول: "وكتبه الشاذلي وفقه الله بتاريخ الثلاثين من ديسمبر عام *1849*م"[4]. كذلك في رسالة إلى صديقه "بواسوني" يختمها بقوله: "وكتبه محبكم الشاذلي في السادس من مارس الفرنسوي عام *1850*"[5].

أسلوب الرسائل:

(*1*) - المقري : نفح الطيب.ص *482*.

* - كان حاكما عاما للجزائر (*1840 – 1847*)

(*3*) - سعد الله أبو القاسم : القاضي الأديب... ص *88*.

(*4*) - المرجع نفسه ص *91*.

(5) - المرجع نفسه ص *95*.

لو أردنا التحدث عن أسلوب رسالة "الوزان" التي كما ذكرنا بعثها إلى "حسن آغا" والي الجزائر، فإنه لا يمكننا القول سوى أنها ذات أسلوب علمي متأدب، فقد ابتعد فيها عن كل تنميق وتزويق للعبارات والألفاظ، وتجنب أساليب البيان والبديع التي تجمل الأسلوب الأدبي، بل كتبها بأسلوب علمي متأدب لم يستعمل المصطلحات العلمية ولا الإحصاءات التي تميز عادة الأسلوب العلمي لكنه حاول أن يجعل أسلوبه بعيدا من عبارات التأنق وبدل عن يخاطب العواطف خاطب العقل مباشرة واستطاع أن يتخلص من منصب القضاء الذي عرض عليه ، حيث أنه عالج مشكلته بطريقة حكيمة فطرح القضية في أول الرسالة فقال: "إني أعلم يقينا أن خطة القضاء خطة شريفة إذ هي ترجمة عن حضرة الألهية ومظهر اسمه تعالى – القاضي- والله يقضي بالحق، والقائم بذلك بالأصالة، وفي الحقيقة هو سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الخليفة الأعظم، وكان يتصرف في خلافته عن ربه بثلاثة أمور"[1].

ثم قام الوزان في رسالته بعد ذلك بِعَدّ تلك الأمور الثلاثة التي اعتمدها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في تصّرفه أثناء خلافته وهي الإمامة العظمى والقضاء بين الخصوم، والفتيا.

وبعد أن طرح الوزان القضية حاول أن يسرد الأسباب التي دفعته إلى رفض مهمة القضاء وذلك بالشرح والتحليل وإيراد الأدلة والبراهين مستشهدا بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث شريفة من السنة النبوية وروايات حدثت لغيره مع القضاء ومشاقه كما استدل بمن رفضوا القضاء من قبله وهم أهل دين وعلم وورع، وجاء بكل ذلك بإسهاب. لا شيء وإنما ليصل إلى إقناع الخليفة "حسن آغا" لماذا رفض هذه المهمة ؟ وقد نجح في ذلك بعد أن توصل إلى سرد النتائج التي قد تحدث لو أرغم على قبول هذه الوظيفة وزج به فيها دون اقتناع وترحيب منه بها، رغم علو شأنها وارتفاع راتبها وكثرة ثوابها.

---

(1) - ابن شغيب: أم الحواضر... ص 135.

ومن أجل هذا كله فقد خلا أسلوب رسالته من الصور البيانية إلا ما جاء عرضا كما في قوله عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب حين قال: "يا حق ما تركت لي صديقا". فقال عنه الوزان: "ومن ضرب الله بالحق على لسانه مثله، لا يبالي بعداوة الخلق... "[1]، فهي كناية عن حكمه الدائم بالعدل، وقوله كلمة الحق التي لا يعلو عليها شيء.

والشيء نفسه بالنسبة للمحسنات البديعية التي لم تظهر إلا قليلا كالطباق في قوله: (الدنيا والآخرة)، (السماء والأرض)، (مفسد ومصلح). والجناس الناقص في قوله: (خلف وسلف).

أما عن رسالة ابن الفكون التي بعث بها إلى صديقه المقري فقد احتوت نوعين من السجع، أو لهما السجع المطرف وهو الذي لا يلتزم فيه الكاتب بالوزن في فاصلته كما يلتزم في المتوازي المرصع، وذلك في قوله: "... من مدنّس الازار ، المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار، الراجي للتنصل من رحمة العزيز الغفّار..."[2].

فما نلاحظه هو أن الفواصل " الإزار، الأوزار، الغفار" وإن كانت اتفقت في حرف واحد" كالراء" فإنها لم تتفق في الوزن ، وهذا ما أطلق عليه علماء البلاغة بالسجع المطرف.

كما جاء به أيضا في مكان آخر من الرسالة ، وهو يعد صديقه بزيارة عاجلة فقال : "...لأنني بالأشواق إلى حضرة راكب البراق ومخترع السبع الطباق..."[3]. فالفواصل "الأشواق، البراق، الطباق، رغم أنها تتفق في التقفية فهي تختلف في الوزن من واحدة لأخرى، لكن الشيء الملاحظ هنا هو حرف القاف من الحروف الشديدة "التي يمتنع الصوت أن يجري معها"[4]، وهذا ما يوافق الحالة النفسية التي تنتاب الإنسان عند الأحزان والآلام. وفعلا هذا ما كان عليه ابن الفكون عند كتابته لهذه الرسالة فقد كان حزينا كئيبا كارها للدنيا تاركا لها مائل إلى التصرف والزهد.

---

(1) - ابن شغيب: أم الحواضر... ص *139*.

(2) - المقري: نفح الطيب...ج2 ص *480*.

(3) - المرجع نفسه. ص *482*.

(4) - المبارك محمد: فقه اللغة وخصائص العربية. الطبعة الثالثة. دار الفكر. بيروت (د ت). ص *127*.

أما النوع الثاني من السجع الذي أورده ابن الفكون في رسالته فهو السجع المتوازي والواضح من خلال قوله: "فالله أسأل حسن الألطاف، والستر عما ارتكبناه من التعدي والإسراف، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم..."[1].

وهنا نجد أن الألفاظ (الألطاف والإسراف) و(العظيم، الرحيم، الكريم) كلها تتفق في الوزن والتقفية، بخلاف السجع المطرف، فإن الألفاظ فيه تتفق في التقفية دون الوزن كما ذكرنا سابقا.

أما عن الجناس والذي هو محسن لفظي آخر لا يقل أهمية عن السجع بل هو من الأسس التي يعتمد عليها الكتاب والأدباء لإتمام السجعات، ولجلب الصوت الموسيقي المناسب لها، ورغم ذلك فإننا لا نجده في رسالة ابن الفكون إلا مرتين فقط، فقد جاء بالجناس اللاحق في قوله: "وقد ساعد البنان الجنان" كذلك في قوله: "فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح"، فكلمتا (الجنان والبنان) و(الفضائح والقبائح)، اختلفنا في حرف أو حرفين فقط.

أما أسلوب رسائل محمد الشاذلي فكما قلنا عنه سابقا أنه أسلوبا رقيقا وذا عبارة فنية وألفاظا حلوة فقد احتوت رسائل الشاذلي نوعا من أنواع السجع ألا وهو السجع المتوازي الذي تتفق الألفاظ فيه في الوزن والتقفية وهذا ما نلاحظه من خلال رسالته التي يقول فيها: " حضرة الفاضل المعظم، والسيد المبجل المكرم، ذي العقل الراسخ، والتدبير الشامخ، محب الخير وأهله، وقايد الناس بقوله وفعله، سعادة وزير الحرب صانه الله ورعاه، وكان له ومن كل شر حماه..."[2]، فالألفاظ (معظم ومكرم)، و(راسخ وشامخ) و(رعاه وحماه). نجد كل لفظتين لهما نفس الوزن ونفس التقفية كما أن عباراته جاءت قصيرة ومتوسطة فهي مناسبة للغرض الذي أوردها فيها صاحبها وهو السلام على صديقه ونعته بجميع صفات النبل والأخلاق الحميدة ثم دعا له بالرعاية والحماية من الله عز وجل.

---

(1) - المقري: نفح الطيب. ج2. ص480.

(2) - سعد الله أبو القاسم: القاضي الأديب. ص 93.

والشيء نفسه نجده في رسالة أخرى بعث بها إلى صديقه "الجنرال بواسوني" سنة 1854، يقول فيها: "حضرة الخليل صاحب القدر الجليل، ثمرة الفؤاد، وزينة الناد، من أشتاقه كل يوم، ولم تفارقني صورته في النوم، محب الخير وأهله، والساعي إلى المكرمات بقوله وفعله، السيد الكاندة بواسوني كان الله له، وبلغه بفضله أمله، آمين السلام عليكم، وعلى من شملته حضرتكم، سلام من المسك أذكى، ومن كل نام أزكى، تعمكم نفحاته ورحمة الله وبركاته"(1).

إن هذا السجع الذي أورده الشاذلي في مقدمة هذه الرسالة، يراه علم البلاغة أحسن السجع وذلك لتساوي فقراته، هذا بالإضافة إلى تركيبه وتدرجه أي أن الفقرة الأولى ينبغي أن تكون أقل من الثانية والثالثة أكبر من الثانية، ولا يستحسن أن يكون العكس وفي هذا يقول صاحب الإيضاح: "ولا يستحسن أن تولى قرينة" قرينة أقصر منها كثيرا، لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى لطولها، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرا يكون كالشيء المبتور، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها والذوق يشهد بذلك ويقضي بصحته"(2).

هذا بالإضافة إلى أن هناك تجانسا بين لفظي (الخليل والجليل) و(يوم ونوم) و(أزكى وأذكى) وهي على التوالي من الجناس المضارع أو اللاحق لأن اللفظين اختلفا في حرف واحد.

وهكذا جاءت رسائل الشاذلي غنية بالمعاني الجميلة والعبارات المختارة الميقات حتى آخر رسالة بعثها دائما لصديقه "بواسوني كتبها ابنه محمود بن محمد الشاذلي" على لسان والده وكان ذلك سنة؛ 1860 يقول فيها: "الحمد لله، وعلى خلاصة فضلاء المحبين حقايقينا النائل من أعلى درجات الفخر قرارا مكينا، الوفي العهد المخلص الود، الباذل... مهجته، في تحصيل الخبر والمفاخر لمحبيه ورفقته، الذائد عنهم بسيف عقله، وجنود حزمه، المتعرض لهم في ميدان المحاسدة، كي يرى الورى ذلك مشاهدة، ويتحقق من ذلك الحسود العدو، أن لا

---

(1) - سعد الله أبو القاسم: القاضي الأديب. ص 99.

(2) - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة. ج 2. شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة. الطبعة 4 دار الكتاب اللبناني. بيروت. ص 548.

انتعاش له بعده ولو... راياته أعلى مكان بالجو، المحب الأفخم، والصديق المبجل الأعظم..."[1].

ويواصل الشاذلي رسالته بهذا الإبداع الأدبي الجميل حتى بعد دخوله في صلب موضوع الرسالة وهو تهنئته صديقه بالعام الجديد ثم يختم الرسالة بقوله: "هذا وإن نفوسا إليكم تايقة وللدنو من جانبكم الرفيع، وحصنكم المنيع، مشوشة وشائقة، نتمنى الاجتماع بكم والمزار، طالبة من ربها أن يقرب الديار من الديار، حقق الله رجاها، وييسر بمنه مناها"[2].

ومما يلاحظ أيضا في هذه الرسائل هو تذييلها بأبيات من الشعر، فالوازن مثلا كتب في رسالته لحسن آغا بتبيين من الشعر لكنهما ليسا من تأليفه بل هما بيتان سارا مسرى المثل، وأوردهما في ختام رسالته حين أقر بأن خطة القضاء عالية الشأن ، رفيعة المرتبة والمكانة لكن، رغم ذلك كله فهي لا تخلو من الخطر العظيم، لتغلب آفة الغضب على الإنسان، فجاء بالبيتين يستشهد بهما؛ فقال: رحم الله القائل[3]

وقـــائلة مـــالي أراك مجـــانبا	أمـــورا وفيـــها للتجارة مربح
فقلت لها مالي بربحك حاجة	فنحن أنـــاس بالسلامة نفرح

كذلك في ختام رسالة ابن الفكون إلى صديقه المقري نجد مقطوعة شعرية يمدح فيها ابن الفكون صديقه وينعته بالصفات الحميدة والأخلاق النبيلة وأنه العلاّمة الفهّامة العارف بأمور العلم والدين حتى شبهه بالبحر الزاخر بشتى الفنون التي يروي بها الطالبون لها؛ فقال[4]:

---

(1) - سعد الله أبو القاسم : القاضي الأديب... ص *101*.

(2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - ابن شغيب: أم الحواضر... ص *140*.

(4) - المقري: نفح الطيب ص *482*.

يـــا نخبـــة الدهـــر في الـــدارية	علـــما تعــــاضده الـــروايـــة
لا زلـــت بحـــــرا بكـــل فـــن	يـــروي به الطـــالبـــون غـــاية
لقـــد تصـــدرت في المعــــالي	كمــا تعــــاليت في العنــــاية
من فيـــك تســـتظم المعــــاني	بلغـــت في حســـنها النــــهاية
رقـــــاك مـــولاك كـــل مرقى	تحـــوي به القـــرب والــــولاية
أعـــــجوبة مـــا لهـــا نظـــــير	في الحفـــظ والفهـــم والهـــداية
يـــا أحمـــــد المقـــري دامـــت	بشـــراك تصبـــــحها الرعـــاية
بجـــــاه خـــــير العبـــاد طـــرا	والآل والصـــــحب والنقــــاية
صلـــى عليـــه الإلـــه تتـــــرى	نكـــفى بهــــا الشـــر والغواية

أما عند الشاذلي فقد ختم رسالة من الرسائل التي بعث بها إلى صديقه "بواسوني" ببيتين من الشعر يهنئه فيهما بحلول العام الجديد ويبارك له المنصب الجديد؛ فقال[1]:

أتـــاك هـــذا العـــام بالغر والهنا	ونيـــل منـــاكم وارتقاء المناصب
وبالأهل والأولاد قرت عيـــونكم	وتصرف عن كل وجوه المصائب

(1) - سعد الله، المرجع السابق ص 102.



ثانيا

الشِعر

الشِعر:

وفيما يلي سنحاول التعرض لما لدينا من نصوص شعرية بقليل من الدراسة والتحليل، وذلك بتسليط الضوء على أهم المميزات الفنية التي تميزت بها هذه النصوص رغم قلتها. فأنا لم أعثر على قصائد كاملة باستثناء قصائد "محمد الشاذلي" أما ما سواها فهي عبارة عن مقطوعات شعرية أو مقاطع من قصائد، كما أن هناك من لم أجد له إلا بيتا واحدا أو بيتين ولهذا فسوف تكون ملاحظاتي أو دراستي على ضوء ما عثرت عليه.

ومن جملة ذلك مقاطع لابن الفكون، وأخرى لعبد الرحمن باش تارزي وابنه مصطفى، بالإضافة إلى قصائد محمد الشاذلي القسنطينـــي.

وسوف يكون تسليط الضوء على هذه النصوص من خلال ثلاث عناصر أساسية وهي: الوزن والقافية، الصورة الشعرية، اللغة والعبارة.

أولا: الوزن والقافية.

يتفق القدماء على أن الشعر لا يقوم قائمة ولا يستوي إلا إذا اعتمد على ركن الموسيقى ، فيرى قدامة أنه "قول موزون مقفى يدل على معنى"[1]، وهو عند ابن خلدون كما رأينا سابقا " الكلام الموزون المقفى..."[2]، أما عن ابن رشيق القيرواني فهو يرى أن: "الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية، وجالب لها ضرورة"[3]، فإذا كان هذا رأي القدماء ، فإننا لا نجد اختلافا بينهم وبين المعاصرين في ذلك.

فهذا عبد الله الطيب يرى أن "النظم العربي يقوم على عمادين:

1- البحر ويتكون من عدد من المقاطع الطويلة والقصيرة منتظمة بطريقة خاصة.
2- القافية ، وهي الحرف الذي يجيء في آخر البيت[4].

إن الوزن والقافية يمثلان في النقد القديم، عماد الموسيقى الشعرية ومحور دراستها، وهذا ما أكده الدكتور شوقي ضيف حين أشار إلى " أن موسيقى الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها وهو ما تضبطه قواعد علمي العروض والقوافي"[5].

و لم يكتف القدماء بدراسة أوزان الشعر وقوافيه وإنما ربط بعضهم بين أوزان الشعر وأغراضه، فجعل لبعض الأغراض والمعاني أوزانا معينة، وقرر أن لكل وزن ما يناسبه من الأغراض والمعاني ومن هؤلاء حازم القرطاجني الذي يقول: "ولما كانت أغراض الشعر شتى

---

(1) - ابن جعفر قدامة: نقد الشعر. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. بيروت. دار الكتب العلمية (د.ت). ص *64*.
(2) - ابن خلدون: المقدمة ص *1405*.
(3) - القيرواني، ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد بيروت: دار الجبل (د.ت) ج*1* ص *134*.
(4) - الطيب عبد الله. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها.ط*2*.بيروت : دار الفكر *1970*م ج*1* ص *113*.
(5) - ضيف شوقي. في النقد الأدبي.ط*6*. القاهرة. دار المعارف. *1981*م ص *97*.

وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا ، وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك في كل قصد..."[1].

فقصائد عبد الكريم بن الفكون التي معنا سواء التي توسل بها لله سبحانه وتعالى بأن يشفيه والتي مدح بها الرسول الكريم كلتاهما من بحر الطويل الذي يتكون من تفعيلتين متناوبتين تتكرر كل واحدة أربع مرات موزعة بالتساوي على الصدر والعجز كما يلي:

فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعيلن، فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعيلن

فابن الفكون يقول:

بأسمـــائك اللهـــم أبدي توسلا	فحقق رجـــــــائي يا إلهي تفضلا
0//0// 0/0//0/0/0// 0/0//	*0//0// 0/0// 0/0/0// 0/0//*
فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن	فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن

ويقول في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم:

أبدر بدت في الخافقين سعوده	ونورا به الأكوان أضحت تلألؤا
0//0// /0// 0/0/0// 0/0//	*0//0// 0/0// 0/0/0// 0/0//*
فعولن، مفاعيلن، فعول، مفاعلن	فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن

---

(1) - القرطاجني، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء ط2 تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة بيروت: دار الغرب الإسلامي 1981م.ص 266.

فإذا كان المقطع القصير يتكون من حركة (/) والمقطع الطويل يتكون من حركة وسكون (/0) فمعنى هذا أن بحر الطويل يكون من ثمانية وعشرون (28) مقطعا طويلا وقصيرا موزعة بالتساوي بين الصدر والعجز بحيث يحتوي كل واحد منهما على عشرة مقاطع طويلة(/0) وأربعة مقاطع قصيرة (/)، وبالتالي "فبحر الطويل يغلب عليه طابع الثقل، لغلبة المقاطع الطويلة على القصيرة وبهذا يكون بحر الطويل من البحور التي تلاءم الهدوء"[1] وربما لهذا السبب اختار ابن الفكون هذا البحر ليناسب غرضه.

مع الإشارة إلى أن تفعيلات البحر في القصيدة لم تكن تامة فقد جاءت العروض مقبوضة "مفاعلن" وكذلك الضرب.

أما عن القافية كما ذكرنا سابقا فقد تنوعت تجمع في الأخير على عبارة "إلهي بحق الممدوح أشفني آمين".

أما أبيات الشاعر "محمد النقاوسي" التي وردت معنا فهي من بحر الكامل والتي تفعيلاته هي كالآتي:

متفاعلن، متفاعلن، متفاعلن	متفاعلن، متفاعلن، متفاعلن

فالشاعر قال:

ضحك الربيع وجاء سعد مقبل	ولك الهنا ذهب الزمان المحمل
///0//0 ///0//0 /0/0//0	///0//0 ///0//0 /0/0//0
متفاعلن، متفاعلن، متْفاعلن	متفاعلن، متفاعلن، متْفاعلن
مستفعلن	مستفعلن

1 - الهاشمي. أحمد: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب. دار الكتب العلمية بيروت. 1979. ص 29.

وهي تفعيلة واحدة "متفاعلن" تتكرر ستة مرات ثلاثة منها في الصدر، وثلاثة في العجز، أما مقاطع بحر الكامل فهي (30) ثلاثون مقطعا طويلا وقصيرا موزعة بالتساوي بين الصدر والعجز بحيث يحتوي كل منها على (9) تسعة مقاطع قصيرة ستة (6) مقاطع طويلة فالفرق بينهما إذا ليس بكثير ويمكننا القول بأن بحر الكامل من البحور المتوازية التي يحافظ فيها الشاعر على نفسه، مع الإشارة إلى أن تفعيلات بحر الكامل في أبيات محمد النقاوسي لم تأت صحيحة بل جاءت العروض مضـــمرة وكذلك الضرب (مستفعلن بدل متفاعلن).

أما إذا أردنا التحدث عن أشعار وبالأحرى منظومات عبد الرحمن باش تارزي فإننا لا نجد لها وزنا معينا، وحتى القافية لم تكن موحدة فكانت تختلف من شطر لآخر، وهذا ما نلاحظه من خلال "المنظومة الرحمنية في الأسباب الشرعية بالطريقة الخلوتية". والتي يقول فيها[1]:

باسمـــــك نبـــــدأ يـــا معـــين	والصـــــلاة علــى الآمـــــين
مـــن آتـــــــانـــا بالتـــلقـــين	في طــــــريــق الأوليـــــــا
يـــا مـــن تـــــريد الشـــــــفا	وإتبـــــــــاع المصــــطفــى
ادخــــــل طــــريـــق الــوفـــا	طــــريـــق الخـــــــلوتيـــــا
يـــا مـــن تـــزيـــد التـــوفيـــق	وسلـــــــوك أهـــل التـــحقيق
أخـــــدم هـــذه الطـــــريـــق	طــــريـــق الصــــــــوفيـــــا
يـــا مـــن تـــــــريـــد الأوراد	وبلـــــــــــوغ المـــــــــــراد
ادخـــــل طــريـــق الإسنــــــاد	طـــــــريقـــا أزهــــــريـــــا

(1) - الصيد سليمان. نفح الأزهار...ص 74.

فما نلاحظه من خلال هذا المقطع أن الشاعر عبد الرحمن باش تارزي لم يلتزم قافية واحدة وإنما تنوعت، ويمكننا تمثيلها إن صح لنا ذلك كما يلي:

___________ أ	___________ أ
___________ أ	___________ ب
___________ ج	___________ ج
___________ ج	___________ ب
___________ د	___________ د
___________ د	___________ ب

فهو يتبع حرفا في ثلاثة أشطر (صدر وعجز ثم صدر) ليختلف عنه في العجز الثاني بحرف جديد، ليعود إلى هذا الحرف بعد الاختلاف عنه في ثلاثة أشطر جديدة. وهذا ما يضفي على المنظومة نوعا من النغم الموسيقي من أولهما لآخرهما.

أما الشاعر "مصطفى باش تارزي" فقد اختار لقصيدته التي مدح بها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي تفعيلات بحر الكامل المناسب لهذا الغرض رغم أن قصيدته لم تخل من بعض الخلل العروضي. أما قافية القصيدة فكانت نونية. وهي كما يقول عبد الله الطيب: "من القوافي الذلل"[1]، التي تصلح لمعظم الأغراض الشعرية.

---

(1) - الطيب عبد الله: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها. ج1. ص 46.

أما قصائد "محمد" الشاذلي فجاءت كلها من بحر الطويل كقوله في مدح "الدوق دومال":

كأنـــكم شمس أضاءت بأرضنا ... بعيد ظـــلام ثم غابـــت على إثر

0// 0//0/ 0//0/0/ 0//0// ... 0/0/0// 0/0// 0/0/0// /0//

فعول، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن ... فعول، مفاعيلن، فعولن، مفاعيلن

كذلك وهو يصف باريس ويمدح أهلها قال:

(بريز) عجـــيب فيه نهـــر يشقه ... وسلطانه في الجود والعدل أعجب

0//0// 0/0// 0/0/0// 0/0// ... 0//0// 0/0// 0/0/0// /0//

فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن ... فعول، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن

والوزن نفسه نجد عليه القصيدة والتي وصف بها قسنطينة فقال:

قسنـــطينة الغراء فـــزت ببهجة ... وعـــز على كل البـــلاد ورقعة

0//0// /0// 0/0/0// 0/0// ... 0//0// /0// 0/0/0// 0/0//

فعولن، مفاعيلن، فعول، مفاعلن ... فعولن، مفاعيلن، فعول، مفاعلن

كذلك قصيدته السياسية في الأمير عبد القادر الجزائري والتي استهلها بقوله:

أيا ذاهـــبا نحو الخـــليفة يلـــقن ... ســـلاما يفوق الند عـــرفا يجدد

0//0// /0// 0/0/0// 0/0// ... 0/0// 0/0// /0/0// 0/0//

فعولن، مفاعيلن، فعول، مفاعلن ... فعولن، مفاعيل، فعولن، مفاعل

وما نلاحظه على هذه الأوزان أنها لم تخل من العلل والزحافات وبالتالي الخلل العروضي الذي لم تسلم منه قصائد الشاذلي، أما قوافي القصائد فقد تنوعت من "رائية" إلى "دالية" إلى "بائية".

الصورة الشعرية:

إذا كانت الموسيقى، هي عمود الشعر لدى معظم الدارسين -كما رأينا سابقا- فإن الصورة لا تقل عنها أهمية، بل قد تفوقها عند البعض، ومنهم الدكتور بسام ساعي والذي يقول "... لاشك أن الموسيقى توأم الخيال في إثارتها للعاطفة، ولكن أثرها مؤقت لا يلبث أن يزول مع زوالها من الذاكرة، أما الخيال فأثره دائم دوام الصورة في ذاكرة القارئ أو السامع، والصورة أنجح وسيلة لتثبيت الآثار العاطفية للشعر والنفوس..."[1].

لقد تفطن النقاد البلاغيون العرب القدامى إلى أهمية الصورة الشعرية وركزوا على دراستها عند فحول الشعراء ، وقد بحثوا عن الصورة في كل تعبير شعري جميل ،ولم يجعلوا دراستهم لها محصورة في الأنماط البيانية الشائعة من تشبيه واستعارة وكناية ، وإنما تعدوها إلى أنواع البديع المختلفة من جناس وطباق وتورية وغيرها من الأساليب البديعية المتنوعة وقد قسم البلاغيون علم البلاغة الذي يهتم بالصورة إلى ثلاثة أقسام ، قسم يختص بدراسة المعاني ويبحث في" كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال حتى يكون وفق الذي سبق إليه"[2].

وقسم يختص بدراسة "البيان"وهو"علم يستطاع بمعرفته إبراز المعنى الواحد في صورة مختلفة وتراكيب متفاوتة في وضوح الدلالة مع مطابقة كل منهما مقتضى الحال"[3].

وقسم ثالث يختص بدراسة البديع، ويبحث في "الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حسنا وقبولا بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال التي يورد فيها، ووضوح الدلالة على ما عرفت في العلمين السابقين"[4].

وقد تجمع هذه العلوم الثلاثة تحت اسم واحد هو **"علم البيان"**.

---

(1) - ساعي أحمد بسام: حركة الشعر الحديث دمشق:دار المأمون للتراث ص *303*.

(2) – المراغي. أحمد مصطفى: علوم البلاغة ط*1*. دار الكتب العلمية بيروت *1982* ص *48*.

(3) - المرجع نفسه. ص *245*.

(4) - المرجع نفسه. ص *379*.

أما حديثا فقد تعددت تعاريف الصورة في الدراسات النقدية فالدكتور عبد الرحمن بدوي يرى أن الصورة الشعرية :"هي أعلى ما يرشح الشاعر للمجد ،لأن الشعر إنما يكون بها إلى جانب الإيقاع الموسيقي ، إذ بها تتحقق خاصية الشعر. وهي أنه يحيل المعاني المجردة إلى امتثالات عينية تنفعل بها الحواس انفعالا لذيذا"[1].

أما الدكتور جابر أحمد عصفور فيجعل الصورة هي: "الوسيط الأساسي الذي سيكتشف به الشاعر تجربته، ويتفهمها، كي يمنحها المعنى والنظام، فالشاعر الأصيل يتوسل بالصورة ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجسدها بدون الصورة"[2].

إذن فالدكتور جابر أحمد عصفور ينظر إلى الصورة الشعرية من حيث هي وسيلة للكشف والتحديد بالنسبة للشاعر يلجأ إليها من أجل إبراز وتجسيد تجربته النفسية أو تصوير إحساس معين من أحاسيسه.

أما ما جاء في موسوعة (لاروس) أن الصورة هي: "أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية وأكثر شاعرية، تمنح الشيء الموصوف أو المتكلم عنه أشكالا وملامح مستعارة من أشياء أخرى تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه"[3].

وهكذا نرى أن مفهوم الصورة يختلف باختلاف وجهات النظر، ودون أن نغوص في تفاصيلها، نحاول أن نراها في مقاطع شعرنا القسنطينـــي القديم.

ففي البيت الذي امتدح به الشيخ ابن الفكون النبي الكريم وقال[4]:

هو الغيث أحيا الأرض بعد موتها   وخاتم كل الرسل تمت مبدأ

---

(1) - بدوي عبد الرحمن: في الشعر الأوروبي المعاصر. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. 1965 ص 72.

(2) - عصفور جابر أحمد: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي دار الثقافة للطباعة و النشر القاهرة 1974 ص464.

(3) - لاروس الموسوعي الكبير: مادة (Image) ترجمة الدكتور محمد ناصر. الشعر الجزائري الحديث. ص 422

(4) - الصيد سليمان: نفح الأزهار. ص 25.

فقد شبه الرسول الكريم بالغيث الذي يحيى الأرض الميتة دون ذكر أداة التشبيه ولا المشبه ودل عليه بالضمير فقط، أما عن وجه الشبه فهو الحياة التي تبعث للأرض الميتة بالغيث وللإنسان بالإيمان.

هذا وقد جاءت معظم المقطوعات معنا خالية من أي صورة شعرية بليغة ملفتة للانتباه وتشد حس القارئ إليها أما قصائد محمد الشاذلي القسنطينـــي فهي لا تخلو من بعض الصور الجميلة التي تجذب السامع أو القارئ إليها وقد جاءت في معظمها على شكل تشابيه وذلك مثل قوله وهو يمدح الدوق دومال عندما كان مغادرا لمدينة قسنطينة سنة 1844م بعد أن كان حاكما عليها[1]:

كأنكم شمس أضاءت بأرضنا بعيد ظلام ثم غابت على إثر

فقد شبه الدوق بالشمس التي أضاءت على الناس بنورها بعد أن كانوا في ظلمات حالكة لكن للأسف غابت هذه الشمس بعد أن غادر الدوق البلاد.

كذلك التشبيه في قصيدة أخرى يمدح فيها الدوق دومال مرة أخرى وهو يزور مدينة قسنطينة فيرى فيه البدر الذي عاد بنوره بعد أن اختفى فيقول[2]:

طلـــعتم كبدر الأفق من بعد غيبة وأنتـــم بدور العز أنتم لنا القصد

فالصورة هنا كسابقتها جعلت من المشبه مصدرا للنور والضياء كالمشبه به (الشمس مرة والبدر مرة أخرى).

أما مدينته الغراء قسنطينة فقد جعلها كالسلطان في عزه وعلاه وحتى في سطوته فقال[3]:

كأنك فوق الكهف سلطان قد علا سرير عـــزيز الملك وهو ذو سطوة

---

(1) - سعد الله أبو القاسم : محمد الشاذلي ص 101.

(2) - المرجع نفسه ص 105.

(3) - المرجع نفسه ص 109.

ثم يجعلها أُماً فيقول:

كأنك أم للغـــريب فكـــل من أتى لـــك منهم نـــال أكمل عزة

فالشاذلي استعمل في جميع تشبيهاته أداة التشبيه"**كأن**"، وقد يلجأ الشعراء أو الكتاب إلى التشبيه لما له من مكانة في علوم البلاغة فقد علم: "أن التشبيه مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وإن تعقيب المعاني به يكسبها أبهة ويرفع من أقدارها ويشب من نارها ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها ويدعو القلوب إليها ويستشير لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ويقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا..."[1].

فالشاعر محمد الشاذلي استعمل التشبيه وهو بمدح مرة "الدوق دومال" ومرة يصف ويمدح مدينة باريس ثم مدينة قسنطينة والتشبيه في غرض المدح "يكون أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم وأهز للعطف وأسرع للألف وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغر المواهب المنائح..."[2].

(1) - القزويني: التلخيص في علوم البلاغة. ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي. بيروت د.ت ص283.

(2) - المرجع السابق. ص 239.

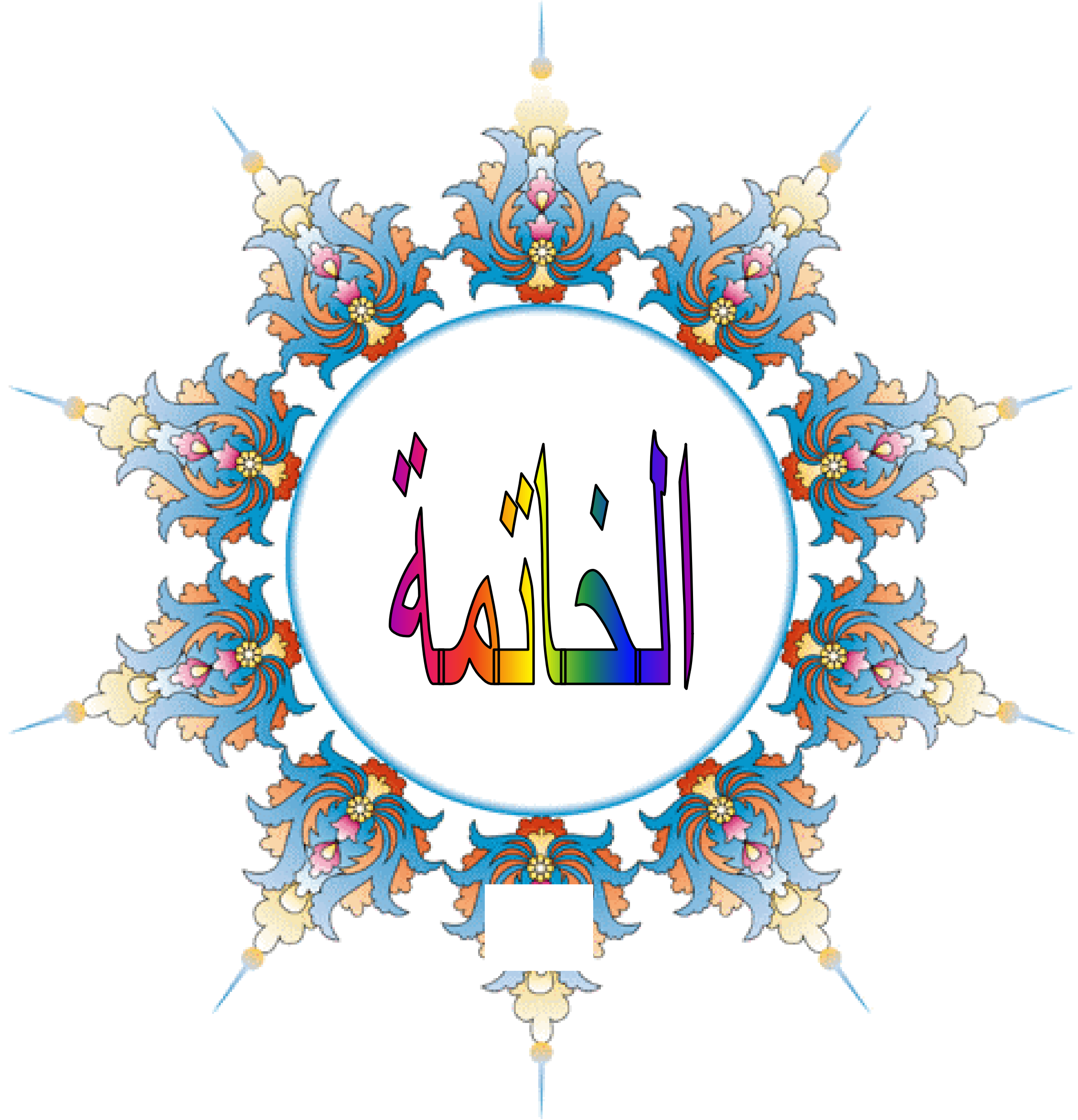
الألفاظ والعبارات:

إن ما يمكن قوله عن الألفاظ والعبارات في الشعر القسنطينـــي بصفة عامة أنها جاءت بعيدة عن كل تعقيد وغريب، فهي ألفاظ متناولة سهلة مستوحاة من الحياة التي عاشها شعراؤنا.

فهي عند ابن الفكون وعبد الرحمن باش تارزي وابنه مصطفى ألفاظ دينية متشبعة بالروح الفقهية وذلك كما جاء في قصيدة ابن الفكون التي مدح بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومنها (خاتم الرسل، الحشر، تشريعه، جوار الخلد، تثاب، راية الله... الخ).

أما ألفاظ الشاعر محمد الشاذلي القسنطيني فقد جاءت بسيطة غير متكلفة ولا معقدة موضوعية بعيدة عن الغموض كما أن عباراته مناسبة للغرض الذي جاءت له.

كما تجب الإشارة إلى اللغة المستعملة في الشعر الشعبي، فهي اللهجة العامية التي يتحدث بها الناس في حياتهم اليومية، وقد يقصد الشاعر الشعبي ذلك لأن تلك هي مهاراته وقدراته كذلك لأن شعره موجه إلى تلك الفئة من الناس وهم العامية من الشعب.


الخاتمة

الخــاتمة:

ما يمكني قوله في خاتمة هذا البحث المتواضع هو أنني أتمنى أن يجد القارئ له شيئا من ضالته في يوم من الأيام حين يتصفح وريقاته لكن ما يلح عليا أن أشير إليه هو قلة المصادر والمراجع التي تتحدث عن الأدب الجزائري عامة والقسنطيني خاصة في الفترات الزمنية الماضية وهذا ما وقف عائقا في طريقي حتى العائلات والأشخاص الذين يملكون البعض منها يرفضون إعارتها أو حتى الإطلاع عليها. لذا صدق مؤلف "تعريف الخلق برجال السلف" حين أشار في مقدمة كتابه قائلا:".... ولم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مظانه، ومحاولة مساجن المؤلف بكل حيلة ووسيلة ، لأن المستحوذين عليها يفضلون بقاءها ذخيرة للأرضة على إفادة طالبيها بها واستفادتهم منها ولا يبالون بما وراء ذلك ، زاعمين أنهم باستعارتها فقدوا منها كتبا نفيسة المواضيع عزيزة الوجود، نسأل الله توفيقنا وإياهم لما فيه رضاه". ص (9)

إذن كانت هذه شهادة صرح بها صاحبها منذ القرن التاسع عشر الميلادي وحتى اليوم مازلنا نعاني المشكل نفسه ونحن نعيش الألفية الثالثة.

فمن خلال هذه الدراسة أو هذا الإطلاع على الحياة الأدبية التي عاشتها مدينة قسنطينة خلال الحكم العثماني يمكننا الخروج بعدة نتائج نحصر أهمها فيما يلي:

إن الحياة السياسية والاقتصادية التي عاشتها مدينة قسنطينة خلال هذه الحقبة الزمنية أثرت تأثيرا يمكن القول عنه أنه تأثيرا سلبيا على الحياة الثقافية والفكرية، فقد كان الحكام العثــمانيون مهتمين بالتجــارة والحروب من جهة ثم البحث عن حياة التــرف والبذخ من جهة أخرى. فلم يعيروا الأدباء والشعراء أدنى اهتمام، ولم نجد أن بايا من البايات قد أقام ديوانا يجتمع غيه المثقفون ولا أسس دارا للكتب يجمع فيها ما يؤلفه هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كانوا يخزنون إنتاجهم في مكتبات خاصة.

ورغم هذه الظروف الصعبة والمتوترة التي عاشتها مدينة قسنطينة وعاشها معها أهلها ورجالاتها فقد أنجبت أسماء لامعة استطاعت أن تجد لنفسها مكانا أمام أسماء الحواضر الأخرى مثل فاس والقاهرة، فنقشت أسماؤهم بماء الذهب في سجل الخالدين أمثال عبد

الكريم بن الفكون والوزان ومحمد الشاذلي وعبد الرحمن باش تارزي وابنه مصطفى وغيرهم ممن لم يسعفهم الحظ في البروز إلى النور بأسمائهم.

رغم تنوع الإنتاج الأدبي لأدباء قسنطينة في العهد العثماني كما رأينا سابقا إلا أن هذا الإنتاج يبقى يفتقر لبعض الفنون الأدبية كالخطابة هذه الأخيرة التي اعتقد أنها كانت لا تخرج من حدود القصر وصلاحية الباي وكاتبه.

ومن أهم ما يمكن استنتاجه أيضا هو غلبة الروح الفقهية على الإنتاج الأدبي للأدباء القسنطينيين وقد يرجع ذلك لكثرة انتشار الزوايا في ذلك الوقت واعتمادها كمراكز للتعليم وحفظ القرآن الكريم.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن النصوص التي توفرت لدينا ولاسيما الشعرية منها لم تكن كاملة بل كانت عبارة عن مقاطع فحسب تم جمعها من مضامين مراجع مختلفة كانت هي الأخرى تكتفي بذكر مقطوعات قصيرة فقط باستثناء قصائد محمد الشاذلي.

أما ما يمكن قوله عن هذا الشعر من الناحية الفنية فهو لم يرق إلى مصاف الشعر الممتاز كالشعر الجاهلي، وفي الوقت نفسه لم تترل به الدرجات إلى الدرك الأسفل وإنما هو أدب وسط له ماله وعليه ما عليه ويبقى الحكم الأخير للنقاد ذوي الخبرة والاختصاص.

ومن هذا العرض السريع لأهم نتائج هذا البحث يتبين لنا جليا أن أدب قسنطينة في العهد العثماني رغم كل العقبات التي واجهته والظروف الصعبة التي أحاطت به فإننا يمكن القول عنه أنه استطاع أن يجعل لنفسه مكانة تلفت الأنظار نحوه وتجلب له العديد من الدارسين الذين يهتموا به وبمضامينه القيمة.

وفي الأخير يجب أن أشير إلى أن ما قدمته اليوم وهو جهد المقل، ما هو إلا قطرة من سبقني في الإبحار إليه أقلام عظيمة، أتمنى أن تقبل مني هذه المحاولة البسيطة أمام الكتابات الكبيرة، وتضيف للمكتبة وللقراء والباحثين الشغوفين بالأدب الجزائري لبنة جديدة تساعدهم على وضع لبنات أخرى.

وتبقى مدينة قسنطينة، المدينة الملهمة التي توحي للكثير بأسرارها وتسيل حبر أقلامهم.

"تم الكلام وربنا محمود وله المكارم والعلا والجود"


المصادر
والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1- بن أشنهو عبد الحميد بن أبي زيان: دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. الطباعة الشعبية للجيش (د. ت).

2- الأشرف مصطفى: الجزائر الأمة والمجتمع. ترجمة حنفي بن عيسى. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983م.

3- ايف لاكوست وآخرون: الجزائريين الماضي والحاضر. تعريب رابح اسطنبولي وآخرون. المطبوعات الجامعية باريس. 1950م.

4- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1997م.

5- ابن البنا المراكشي العددي: الروض المريع في صناعة البديع. تحقيق رضوان بن شقرون دار النشر المغربية. الدار البيضاء 1985م.

6- بدوي عبد الرحمن: في الشعر الأوروبي المعاصر. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. 1965م.

7- باشا عمر موسى: تاريخ الأدب العربي. العصر العثماني. دار الفكر المعاصر. بيروت. الطبعة الأولى. 1409هـ/ 1989م.

8- الجزائري محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. تقديم وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم. دار الثقافة بيروت. ط1. 1972م.

9- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر العام. دار الثقافة. بيروت. ط6. 1986م.

10- جبور عبد النور: المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. الطبعة الأولى. بيروت. 1979م.

11- ابن جعفر قدامة: نقد الشعر. تحقيق محمد عبد المنغم خفاجي. دار الكتب العلمية (د.ت). بيروت.

12- الحفناوي محمد: تعريف الخلف برجال السلف. طبعة مؤسسة الرسالة. تونس. 1982م.

13- حمادي عبد الله: دراسات في الأدب المغربي القديم. ط1. دار البعث للطباعة والنشر. قسنطينة. 1986م.

14- حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في ألأدب العربي. دار النهضة العربية. ط1. بيروت. 1982م.

15- خوجة حمدان بن عثمان: المرآة تقديم وتعريب وتحقيق. محمد العربي الزبيري. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1975م.

16- ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون. ط2. تحقيق عبد الواحد وافي بجنة. البيان العربي. ج4. 1967م.

17- الخطيب القرويني: الإيضاح في علوم البلاغة. ج2. شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي. ط4. دار الكتاب اللبناني. بيروت. (د. ت).

18- الخطيب القرويني: التلخيص في علوم البلاغة. ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي. بيروت. (د.ت).

19- الراشدي عبد القادر: تحفة الإخوان في تحريم الدخان. تحقيق ودراسة عبد الله حمادي. دار الغرب الإسلامي. ط1. 1997م.

20- الزياني محمد يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تقديم وتعليق الشيخ المهدي البوعبدلي. الجزائر. 1979م.

21- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. دار الغرب الإسلامي. ط1. 1998م.

22- سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي القسنطيني. ج2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1401 هـ/ 1981م.

23- سعد الله أبو القاسم: محمد الشاذلي القسنطيني. دراسة ونصوص. المؤسسة الوطنية للكتاب.

24- سعد الله أبو القاسم: القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني. المؤسسة الوطنية للكتاب. 1985م.

25- سعيدوني نصر الدين: مذكرة حول إقليم قسنطينة. مجلة الأصالة. العدد 71/70.

26- سعيدوني نصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1999م.

27- سعيدوني نصر الدين: النظام المالي للجزائر بين الفترة العثمانية (1800م/1830م). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. مطبعة أحمد زبانة. الجزائر. 1979م.

28- سعيدوني نصر الدين: ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية. مقال في مجلة الثقافة. العدد 78. 1983م.

29- ساعي أحمد بسام: حركة الشعر الحديث في سوريا دمشق. دار المأمون للتراث (د.ت).

30- شيلر وليام: مذكرات وليام شيلر قنصل أمريكا في الجزائر. سنة (1816م/1824م) تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل لعربي. الجزائر. 1982م.

31- الشيخ أبو عمران: معجم المشاهير المقاربة. تقرير نصر الدين سعيدوني. 1945م.

32- ابن شغيب محمد المهدي: أم الحواضر في الماضي والحاضر. مطبعة البعث. قسنطينة. 1980م.

33- الصيد سليمان: نفح الأزهار. عماني مدينة قسنطينة. من الأخبار ط1. 1414هـ/1994م.

34- ضيف شوقي: في النقد الأدبي. دار المعارف. القاهرة. ط6. 1981م.

35- الطيب عبد الله: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها. ط2. بيروت. دار الفكر 1970م.

36- الطمار محمد: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1983م.

37- ابن العطار أحمد بن المبارك: تاريخ قسنطينة. تحقيق رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1974م.

38- العنتري صالح: مجاعات قسنطينة. تحقيق رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1974م.

39- عصفور جابر أحمد: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي. دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة. 1974م.

40-العسكري أبو هلال: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل. دار إحياء الكتب العربية. ط1. القاهرة. 1952م.

41-العياشي أبو سالم عبد الله: رحلة العياشي. طبعة فارس. المغرب. 1316هـ/1898م. ج2.

42-غانم محمد الصغير: قسنطينة عبر تاريخها القديم. مجلة العلوم الإنسانية. جامعة منتوري قسنطينة. 1999م.

43-ابن الفكون، عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية. تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1987م.

44-القرطاجني حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. بيروت. دار الغرب الإسلامي. ط2. 1981م.

45-القيرواني ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت. الجيل. ج1. (د.ت).

46-لعروق محمد الهادي: مدينة قسنطينة دراسة في جغرافية العمران. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1984م.

47-لعروق محمد الهادي وفيلالي عبد العزيز: مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية. دار البعث قسنطينة. ط1. 1984م.

48-مسعود العيد: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني. مجلة سيرتا. مطبعة البعث قسنطينة. ع3. 1980م.

49-المراغي أحمد مصطفى: علوم البلاغة. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت. 1982م.

50-المبارك محمد: فقه اللغة وخصائص العربية. دار الفكر. ط2. بيروت. 1968م.

51-المقري شهاب الدين بن محمد التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب. ج2. مصر. 1949م.

52-موسوعة لاروس: ترجمة محمد ناصر "الشعر الجزائري الحديث".

53- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. الطبعة الثانية. بيروت 1400هـ / 1980م.

54- الناصري أبو رأس: درء الشقاوة في فتنة درقاوة. نقلا عن مقدمة الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي. قسنطينة. 1973م.

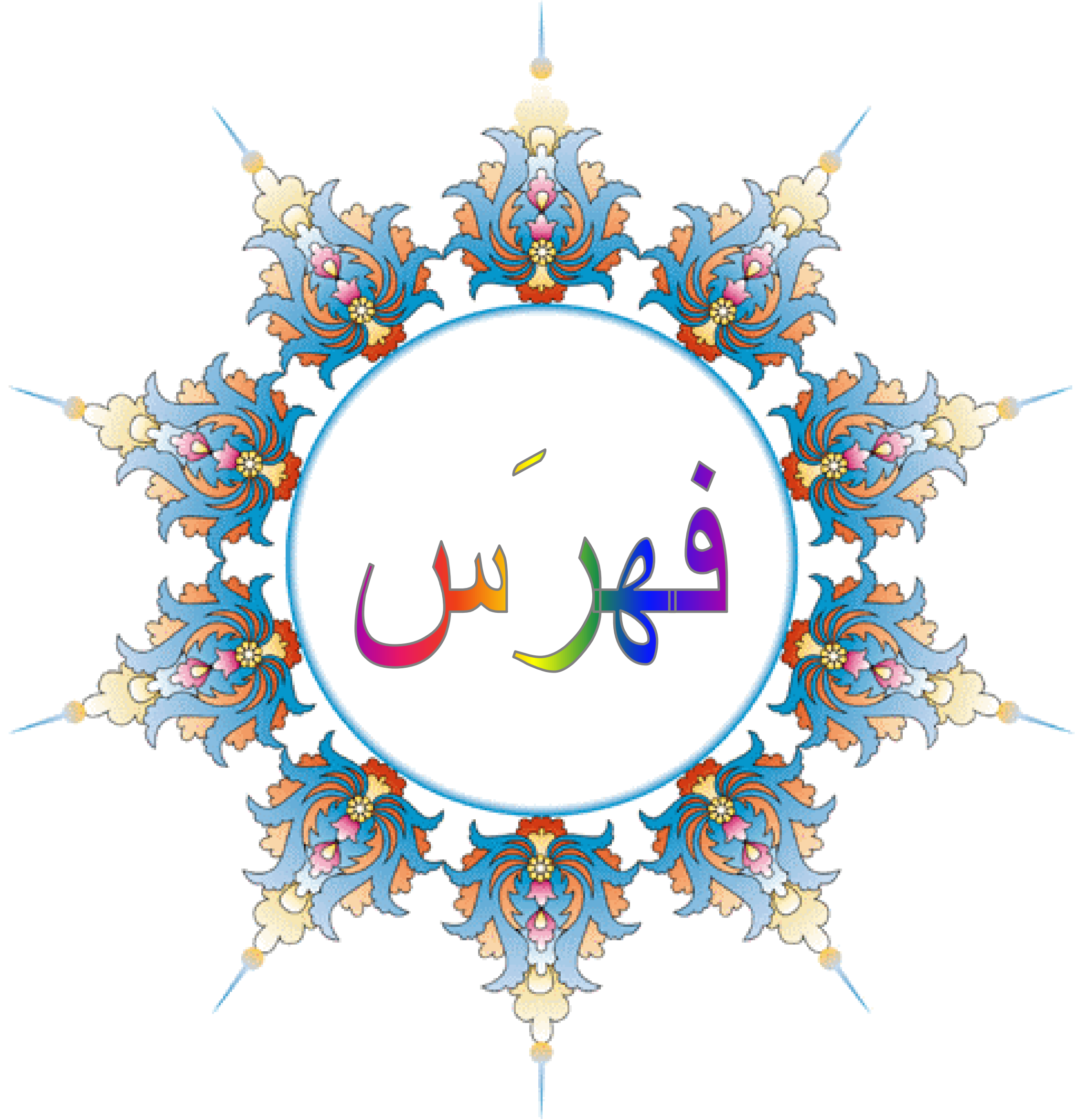
55- الهاشمي. أحمد: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب. دار الكتب العلمية. بيروت. 1399هـ / 1979م.

56- الورتلاني حسن: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. تحقيق ابن أبي الشنب. الجزائر. 1908م.

57- يحي جلال العالم العربي الحديث والمعاصر. المكتب الجامعي الحديث. ج1. ص 33.

المراجع باللغة الأجنبية:

1- Berthier. A La Numide (Rome et Maghreb). Paris. 1980.
2 – Mercier (F) histoire de Constantine 1903.


فهرَس

العنـــــــــــــــــوان

الصفحة

الفصل الثالث

شعراء قسنطينة في العصر العثماني

الفصل الرابع

أهم المميزات الفنية للأدب القسنطيني في العهد العثماني

الخـاتمة

La vie littéraire a Constantine pendant l'ère ottomane:

La présente recherche a pour principal objet la vie littéraire dans la ville de Constantine pendant l'ère ottomane, elle est essentiellement structurée autour d'une introduction et de quatre chapitres.
Dans l'introduction c'est le site géographique de la ville que nous avons analysé avec sa nature mystérieuse qui a fasciné beaucoup de monde, en plus à l'origine de sa dénomination et comment ce nom s'est développé jusqu'à devenir ce qu'il est maintenant, tout en énumérant les principales événements historiques pré-ottomane qu'a connu la ville jusqu'à en arriver à cette ère.

Dans le premier chapitre ce sont les différentes situations politiques qu'a connue la ville de Constantine qui ont été étudiés quand les turcs l'ont pénétré, comment leur gouvernance s'est stabilisée et quels sont les gouverneurs (Beys) les plus importants qui l'ont dirigé tout en citant les événements politiques les plus marquants qui ont tracé l'histoire de la ville à cette époque là.

Ensuite nous avons parlé des situations économiques qu'a vécue la ville de Constantine avec toutes les transactions qui ont suivi l'économie de la ville de l'autorité suprême à l'ensemble du peuple.
Après, nous avons ôté la voile sur la scène sociale de la ville qui était en relation directe avec les conditions économiques où nous avions eu un bref aperçu du

vécu des citoyens constantinois et de la société en générale qui se divisait à des classes dissemblables culturellement et matériellement.

Dans le deuxième chapitre : nous avons voulu mettre en valeur les noms les plus importants de la littérature constantinoise qui ont vécu durant la gouvernance ottomane en donnant à titre d'exemple certains échantillons de leurs œuvres littéraires.

Le troisième chapitre a été consacré aux plus brillants des poètes que la ville de Constantine a engendré durant cette phase, tout en exposant partie de leurs œuvres chaque fois qu’il nous était possible, avec remarque que certains noms ont été mentionnés dans le deuxième et troisième chapitre vu que nombre entre eux était écrivain et poète à la fois.

Le quatrième et dernier chapitre a constitué une pause artistique devant quelques textes de la prose et de la poésie pour en élucider les principales caractéristiques artistiques et leurs particularités d'après leur rime et leur mesure et selon aussi l'image poétique du texte, sa langue et ses expressions.

Citons parmi les auteurs et les écrivains Constantinois pendant l'ère ottomane, Abdelkrim BENLEFKOUN, Abdelkader RACHEDI, BENLATER, Salah BENLANTRI, et beaucoup d'autres.

Quand aux poètes, nous pouvons cité encore une fois BENLEFKOUN, Abderahmane BECHTARZI, et son fils Mustapha, le poète de Constantine et son magistrat Mohamed CHADLI Qasantini.

Au terme de la présence recherche le résultat qu'on peut citer est que la littérature constantinoise pendant l'ère ottomane n'a pas bénéficié de la diligence nécessaire de part les dirigeants qui se sont occupé en premier et en dernier de leurs intérêts personnels en cherchant la fastidiosité et l'opulence dans leur vie, au point où nul d'entre eux n'a cherché a édifier une maison pour les livres, ou un office pour le livre et les poètes, ce qui a produit une absence de certains formes de littérature comme la rhétorique par exemple.

Et malgré tout cela les auteurs constantinois ont pu grâce à leur persévérance de se procurer une place de choix sur la scène artistique où leurs noms furent écrits pour en rester gravés à perpétuité.